تهويد المعرفة

ممدوح عدوان



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

تهويد المعرفة

تهويد المعرفة
تأليف: ممدوح عدوان

تصميم الغلاف: باسم صباغ

الإخراج: محمد غيث الحاج حسين

الطبعة الثانية: تشرين ثاني /2007 م/

التوزيع في سورية:
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
دمشق – ص ب: /9838/
هاتف/ فاكس: /6133856/ 11 00963
جوال: /266681/ 944 00963
البريد الالكتروني: ADDAR@mamdouhadwan.net

ممدوح عدوان

تهويد المعرفة

تهويد المعرفة

بعـــد قـــراءتك لكتاب كيت وايتلام عن تلفيق تاريخ إسرءيل التوراتـــية[1] ســـتعرف لماذا وصف إدوارد سعيد مؤلفه بالشجاعة. فـــالمؤلف لا يـــناقش فقـــط بل يقاتل بالحجة. وهو يقاتل اليهود

---

1 و كتاب كيت وايتلام " تلفيق إسرءيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني " الذي قمت بترجمـــته لـــدار قدمـــس بدمشق، عام 2000. وقد كانت هذه المادة مكتوبة بمثابة مقدمة للترجمة. ولكن إشكالاً حدث بين الناشر وبين سلسلة "عالم المعرفة" الكويتية، التي نشرت الكـــتاب قبل صدوره في دمشق. وثار جدل وصل إلى المحاكم حول أحقية النشر. ووجد الناشـــر (د. زيـــاد منى) أن استكتاب المؤلف (وايتلام) نفسه تقديماً للترجمة العربية – ترجمتي – يقوي موقفه. وهذا ما حدث. وربما كان محقاً.

ولكـــن ظلت هذه المقدمة – المقالة التي عملت على توسيعها وتطويرها حتى صارت كما تراها في هذا النص.

ويجـــدر بنا التنويه هنا إلى أن كتابة "إسرءيل" بهذه الطريقة، (وباقتراح من د. زياد منى) كانـــت بهدف تمييزها عن إسرائيل، الكيان المعاصر، ولكي لا نضطر في كل مرة إلى كتابة "إسرائيل القديمة".

الذين ستعرف أنهم يتحكمون بعقل العالم. وهو يقاتلهم ضمن ميدان اختصاصي دقيق: تاريخ فلسطين القديم وبأسلحتهم الأكاديمية ذاتها.

كانوا قد قرروا، من خلال ركام عالٍ من الدراسات الأكاديمية، أنه لم يكن هناك تاريخ في فلسطين إلا التاريخ اليهودي. وهذا لم يكن بحثاً في التاريخ أو بحثاً عن الحقيقة، بل كان جزءاً من المشروع الصهيوني الذي يفعل فعله في العقل الأوربي، مثلما يفعل اللوبي الصهيوني فعله في كواليس السياسة العالمية المعاصرة. ومثلما استعمروا فلسطين فإنهم يستعمرون العقل والبحث العلمي. ومثلما أراد الصهاينة المعاصرون تجاهل وجود شعب فلسطيني في فلسطين - على أساس أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض - كذلك فقد أقاموا توازياً تاريخياً يجعل من فلسطين في التاريخ أرضاً خالية من الشعب والحضارة، بحيث لا وجود لأي تاريخ في تلك الأرض سوى التاريخ اليهودي.

وقد قُدمت الدراسات ضمن المؤسسات الأكاديمية التي تضغط بثقلها العلمي، وبحيث تحول الاجتهاد إلى رأي عام ثم إلى بديهية مسلّم بها.

ووايـــتلام يتصدى لهذا كله بعلمانية وصدق، وحماس لا يخرجه عن القدرة على الإقناع والمحاججة.

ولكن.. هل كان لليهود ذلك النفوذ على المؤسسات الأكاديمية والبحث العلمي ؟ وكيف حققوا ذلك ؟

ليســت المســألة مجرد مسألة لوبي صهيوني أو يهودي، نشيط وفــاعل ومؤثر في هذا البلد أو تلك المؤسسة. وليست مجرد ضغوط بالمــال للسيطرة على الإعلام، أو للسيطرة على قرارات الدول. بل هي مسألة العوامل التي ساعدت هذا اللوبي على الوجود ، وسهلت له عمله.

سنتبين أن هذه العوامل المساعدة على ترعرع النفوذ اليهودي في العقلــية الأوربية كانت موجودة قبل السياسة والاقتصاد. لقد كان اليهود متواجدين ومؤثرين قبل وجود مشروعهم الصهيوني. وبحيث صــار هــناك صهاينة غير يهود، ومتهودون بفعل الثقافة والتحرر والحس الإنساني والحمية الدينية.

خــارج السياســة والاقتصاد كانوا موجودين في الثقافة والدين الأوربي، الذي هو الدين المسيحي حتماً.

وفي الوقت الذي كان المشروع الصهيوني يتبلور حركة سياسية ثم استعمارية ثم استيطانية، كان هناك مشروع يهودي، صهيوني، ومتصهين غير يهودي بالضرورة، يجتاح العقل الأوربي الذي يستعمر العالم مادياً وثقافياً وفكرياً.

وحين سيطروا على العقل الأوربي الغربي سيطروا على عقل العالم.

فعقل العالم، سواء اعترفنا أم لم نعترف، قد صار عقلاً غربياً. الغرب هو المهيمن على مقدرات العالم وعلى ثرواته وأفكاره. وهو الذي يرسم مصيره. ويطلق عليه الأسماء والتوصيفات، ويرسم لدوله الحدود، ويقرر له القيم الثقافية والفكرية والسياسية والعلمية. واليهود ركزوا جهودهم على مركز القوة هذا في العالم. وبتتبع ولاءاتهم المتذبذبة بين هذه الدولة وتلك من دول المركز الأوربي، ظلوا يدورون في فلك الغرب الذي يحكم العالم. فعرفوا كيف يتحكمون بالعقل لكي يتحكموا بالقرار أو يؤثروا فيه.

وربما كان غيرنا من الشعوب لا يحس بسيطرتهم أو لا يتحسس منها. ولذلك أيضاً فالآخرون يتقبلون طروحات اليهود المغلفة بالعلمية والأكاديمية حيناً، والدينية والقدسية أحياناً أخرى. ولعلنا،

نحـــن أيضـــاً، ما كنا لنحس بذلك لولا صراعنا معهم خلال القرن الماضي، وانكفاؤنا داخل هذا الصراع غير المتكافئ.

صحيح أنه كان هناك قلة من اليهود لم يكونوا صهيونيين. ولكن صـــحيح أيضاً أن اليهود، فكرياً وثقافياً وسياسياً، تحولوا إلى جراد. جـــراد ســـريع التفريخ، شره للالتهام. فالتهم الجراد اليهودي عقل الغـــرب، وتغلغـــل في مصادر تغذية هذا العقل من دين وثقافة، في الوقت الذي كان فيه يسعى إلى التهام أراضيَ وثقافاتٍ وحضاراتٍ وتواريـــخَ وشـــعوباً في العالم. وكنا نحن الضحية الأولى والأساس للشره الصهيوني.

وقد سبق لي أن قرأت كتاباً عربياً ، " قس ونبي \ بحث في نشأة الإســـلام "، لأبي موسى الحريري، صادراً منذ أكثر من ربع قرن. وكـــان لا بـــد أن أتذكـــر ذلك الكتاب، وأنا أترجم هذا كتاب وايتلام.

يقـــول مؤلـــف "قس ونبي" إن محمداً لم يكن نبياً. بل هو مردد لتعاليم ورقة بن نوفل، قس مكة. وتعاليم ورقة التي لقنها محمداً، من وراء الســـتار على أنها الوحي، هي شذرات من كتاب كان ورقة يترجمه. والكتاب هو "الإنجيل بحسب العبرانيين".

ويقول المؤلف، بأكثر من صيغة، إن العرب كانوا في حاجة إلى كـــتاب بلغـــتهم. والمعـــنى المقصود هو "نسخة عن هذا الكتاب بلغـــتهم"، لأن "كل أمة تدعو إلى كتابها" و "كل قرية لها كتاب". والكـــتاب دائماً، وللشعوب كلها، هو "الإنجيل بحسب العبرانيين". وكـــل مـــا لدى تلك الشعوب من كتب أخرى لا معنى لها، إن لم تكن نسخاً مترجمة من ذلك الكتاب إلى لغاتها.

ولما كان العرب بلا كتاب، فقد يسّر ورقة بن نوفل لمحمد أن يحل عقدة النقص لدى العرب، فجاءهم بنسخة من "الكتاب" بلغتهم.

"الإنجيل بحسب العبرانيين"!

منذ متى يتبنى الدين القديم (اليهودي) ديناً لاحقاً به (المسيحية)؟ ولمـــاذا تكون "النصرانية"، التي هي الاسم الحقيقي للإسلام حسب قولـــه، هـــي "الطائفة التي آمنت من بني إسرعيل"؟ ومتى تمت هذه المصالحة بين الإنجيل والعبرانيين وبني إسرعيل؛ باختصار بين المسيحية والـــيهودية، التي يفترض أنها مكروهة من المسيحية، وأنها تحمل وزر قتل المسيح؟

لم يكن اليهود قادرين في الماضي على التصدي لهذا الأمر. ولكن حدث تحول ذو أهمية كبيرة عبر التاريخ المعاصر.

حين يكتب الشاعر بايرون "قصائد عبرية" عن حق اليهودي في أن يكـــون له بيت، شأنه شأن الطيور والحيوانات، ويوجه نابليون نـــداء إلى يهـــود العالم بأن بعثهم قد أزف بمجيئه، وقد جاء وقت خلاصـــهم لكي يعودوا إلى أرضهم التي وعدهم الرب بها، ويوجه اللورد باترسون رسالة إلى السلطة العثمانية (1840) يبين فيها مخاطر حملـــة محمد علي باشا على بلاد الشام. ويقول: "إن تشجيع اليهود للعـــودة إلى فلســـطين ووجودهم الدائم هناك يقطعان المخططات الشـــريرة لمحمد علي وخلفائه"، ويقول لامارتين أمام مجلس النواب الفرنســـي: "بريطانيا تريد جمهورية يهودية، وفرنسا يجب أن تصر عـــلى مملكة مسيحية، عاصمتها القدس". فهذا يعني أن المسألة أكبر بكثير من الاكتفاء بنظرية المؤامرة والضغط الاقتصادي لتفسيرها.

هناك تيار فاعل ومؤثر جعل هذا التماهي بين المسيحية الأوربية واليهودية ممكناً.

لقـــد سعى اليهود ببراعة للتغلب على الكراهية المترسبة عن دور أجدادهـــم في قـــتل المسيح. وقد نجحوا أخيراً في استصدار "فتوى" بتـــبرئتهم من دم المسيح من البابا نفسه. وصار من يذكر هذا الأمر يصنف فوراً على أنه معاد للسامية.

ثم بدأت الحملة المضادة لتتوصل إلى أن المسيح نفسه يهودي.

ولكــن هــذا لم يتم بسهولة. هناك تراكم من عمليات سرقة المسيح من أصله ونبوته لإحالته إلى اليهودية. وقد تم ذلك في ميادين متعددة سنتوسع قليلاً في بعض منها.

****

يقــول الدكــتور رمسيس عوض في كتابه "صورة اليهودي في الأدب الإنكليزي" إن كتّاب المسرح الإنكليزي البارزين في العصر الإليزابيثي كلهم "أشاروا في إنتاجهم الأدبي إلى اليهود.. منذ ظهور "تاجر - البندقية" حتى وقت إغلاق المسارح".

".. وفي غضون الخمسين عاماً التي انقضت منذ أن ألف شكسبير "تاجر البندقية" حتى إغلاق المسارح الإنكليزية 1642 شاهدت الحركة المســرحية في إنكلترا تدهوراً كبيراً. وتميزت مسرحيات ذاك الزمان بكــثرة الإشــارات إلى اليهود بشكل لافت للنظر، الأمر الذي يبدو غريــباً إذا تذكرنا ضآلة عددهم في إنكلترا آنذاك. ولعله أصبح تقليداً مسرحياً أساسياً أن يشير أي كاتب مسرحي إنكليزي إلى اليهود إذا أراد تثبيت أقدامه كمؤلف مسرحي".

وتشوسر (1340 - 1400) صاحب "حكايات كانتربري"، والتي تعتبر أول نص أدبي إنكليزي مقروء، يورد في "حكاية الراهبة" قصة الطفـــل المسيحي الذي يترنم بأغنية عن السيدة العذراء ويرددها في الشـــوارع. ثم يمر في حارة اليهود فيتآمرون عليه ويذبحونه. وكان جزاؤهم التكبيل والجر بالخيول قبل الشنق.

وفي "حكايـــة الفاخر" و"حكاية القسيس" يحملهم دم المسيح. كما أنه يورد في "حكاية السير توباس" أنهم شعب الله.

ولكـــن رغم هذا الهجوم عليهم في أكثر من مجال ثقافي وفكري فقد صدر عام (1614) كتاب "السلام الديني" الذي يطالب بالسماح بعودة اليهود إلى إنكلترا، وكانوا قد طردوا منها عام (1290).

وفي 30 مقالة من مقالاته البالغة 118 في "قاموس الفلسفة" كان فولـــتير يـــتحدث عـــن الـــيهود بامتهان. وهو يسميهم "سادتنا وأعداؤنا.. الذين نحتقرهم.. الشعب الأكثر بغضاء في العالم".

ولعل الدلالة تصبح واضحة في البحث عن أصل كلمة "غيتو". فالغيـــتو كلمة إيطالية تعني الحي اليهودي. وربما ظهرت الكلمة في القـــرن الســـادس عشر. وأول غيتو لليهود كان في البندقية، حيث أقامـــت حكومتها في عام (1516) سوراً حول بيوت اليهود لعزلهم

عـــن المســـيحيين. وفي بداية القرن السابع عشر شاعت الكلمة في اللغات الأوربية. وفي (1936) استخدمت لوصف سياسة الدولة تجاه اليهود، حين تحظر عليهم العمل في بعض المشاريع الاقتصادية. وفي "رســـالة اللاهوت والسياسة" يرى سبينوزا أن قيام الغيتو من صنع اليهود أنفسهم.

فكـــيف تم هذا الانتقال من اليهودي المرذول (شايلوك مثلاً) في أوربا إلى اليهودي المتماهي مع العقل المسيحي الأوربي الآن؟

****

منذ القرن الثامن عشر بدأت صورة اليهودي الكريه تتراجع من الأدب الغـــربي وتحل محلها بالتدريج صورة اليهودي الإنساني (الجار والمعـــين). وبعد يهودي مالطا عند مارلو، وشايلوك عند شكسبير، والأدبيات الكثيرة الأخرى التي تندد باليهود وجشعهم واستغلالهم، بدأ طرح شخصية اليهودي الطيب.

في روايـــة "هارنغتون" لماريا إدجورث (1767 — 1849) ظهرت الصورة الأولى. فمقابل باراباس (عند مارلو)، الذي يرفض إقراض الدولـــة لمواجهـــة الغزو التركي، وشايلوك (عند شكسبير)، الذي

يطالـــب باللحم الآدمي مقابل دَينه، هناك مونتينيرو اليهودي الذي ينقذ هارلنغتون الإنكليزي من أزمته المالية.

لقد قالت تلك الكاتبة في روايتها، بشكل غير مباشر، إن اليهود بشـــر عـــاديون، وفـــيهم أثرياء طيبون يمكن أن يحلوا المشكلات الاقتصـــادية في بريطانـــيا وأوربا. وحتى عند تشوسر تعوّد حاكم المدينة أن يقترض الأموال منهم.

ومن الملاحظ أن هذه الصيغة متكررة. اليهودي معه المال دائماً. وكما يقول مونتسكيو في "رسائل فارسية": "فلتعلم أنه حيث يوجد المال فهناك اليهودي".

والآخـــرون يقترضون منه. تارة يرفض (يهودي مالطة)، وتارة يقـــبل بشروط قاسية على المدين (تاجر البندقية). ولكنه في "ضمان التاجر"، بين القصص التي جمعها بيفرلي بويد في "معجزات العذراء مـــريم المكـــتوبة بإنكليزية العصور الوسطى"، هناك اليهودي الذي يقترض ثم ينكر الدَّين.

وحـــين جاء دزرائيلي (بنيامين 1804 — 1881) جاء معه البطل اليهودي الإيجابي في الكتابة والحياة وعالم المال. يقول: "إن اهتمامي بســـعادة شـــعبي – اليهودي طبعاً – لمن الحدة بحيث يمنعني من أن

أكـــون أعمـــى لـــلحظة واحدة تجاه العواصف المتلاحقة على أفق المجـــتمع". ولكـــنه هو نفسه الذي يدرك أن "التوجه الفطري لدى الشعب اليهودي مضاد لمبدأ المساواة بين البشر. ولديهم صفة مميزة أخـــرى - هي القدرة على التملك. إن شغفهم هو بالدين والملكية والأرستقراطية الطبيعية".

ثم جـــاءت روايته "آلوري"، عام (1833)، وموضوعها بوضوح هـــو النضال من أجل إقامة كيان يهودي في فلسطين، وحتى إعادة بناء هيكل سليمان. فالبطل داود (ديفيد آلروي) متمرد يهودي ضد المسلمين في أذربيجان عام (1160). يقوم داود هذا بقتل أمير مسلم دفاعـــاً عـــن شقيقته. ثم يبدأ بتحريض اليهود الآخرين للعودة إلى القـــدس أو العودة إلى التفكير والحلم بها. ويخاف اليهود من الانتقام مـــنهم بســـببه، أو إذا عـــرف عنهم هذا التوجه الذي يدعو إليه، فيقومون بقتله.

ولكن البطل يفكر بوصفه يهودياً حقيقياً حانقاً على خنوع بني قومه: "يا رب الجنود، دعني أهاجم أو أمت. دعني أهاجم مثل داود أو أُقتل مثل شاول.. يا رب. إن عبدك إسرءيل هو الآن رقيق مهان ومذلـــول". ثم يطـــرح الحلم بشاعرية: "لقد سقط القرميد، ولكننا سنعيد البناء بالمرمر".

ويجب أن لا نغفل عن أن دزرائيلي قد وصل أخيراً إلى رئاسة الوزارة البريطانية مرتين (1868 و 1874). وهو الذي تحمل مسؤولية اقتراض أربعة ملايين جنيه لشراء أسهم الخديوي إسماعيل من قناة السويس.

ثم جاءت جورج إليوت (1819 – 1880) في "الغجرية الأسبانية" لتقول: "إسرءيل بين الأمم بمثابة القلب من الجسد، هكذا يكتب شاعرنا يهوذا". وفي (1876) كتبت: "إننا، نحن الذين نشأنا على المسيحية، مدينون لليهود بشكل خاص.. إنهم (أي المسيحيين) لا يعرفون أن المسيح كان يهودياً".

وبعد ذلك جاءت روايتها "دانييل دينوردا"، التي موضوعها الأساس هو قضية اليهود. وقد وُصفت الرواية بأنها توضح حساسية الكاتبة "تجاه الثقافة اليهودية، ومعرفتها بها". كما تميزت "بحميميتها" تجاه البطلة اليهودية غندولن هارليت. وفيها مقاطع اعتبرت "تحدياً ثقافياً" لعصرها، من خلال استكشافها وطرحها أفكاراً جدية حول العرق والقومية، اعتماداً على النموذج اليهودي.

وهذا ليس أمراً عابراً. فجورج إليوت هو الاسم المستعار لأهم شخصية نسائية في تاريخ الأدب الإنكليزي في ذلك القرن، وربما في

القـــرون التالـــية. كـــان اسمها الحقيقي ماري آن، أو ماريان إيفانز. وكانت شخصية متحررة صاعقة في ذلك الحين. وليس الأمر متوقفاً على تحررها وتبنيها لاسم رجل لاقتحام عالم الأدب والثقافة. بل إنها كانـــت شخصـــية ثقافية عالية الفاعلية. فإضافة إلى كتاباتها الروائية المتمـــيزة قامـــت بـــترجمة "جوهر المسيحية" للودفيغ فيورباخ، كما ترجمـــت "الأخـــلاق" لســـبينوزا، وقالت بأولوية العلم على الخرافة والوهم . وكانت مناضلة من أجل تحسين التمثيل الشعبي في البرلمان.

مـــا الـــذي يضع هذه المرأة الرائدة في خدمة القضية اليهودية، وبحيث يصبح "يهوذا شاعرنا"؟

الجـــواب هو أن قضية اليهود كانت قد صارت جزءاً من قضايا التحرر في الفكر الغربي. وفي الوقت ذاته كان اليهود يقدمون وجهاً ثقافـــياً ودينـــياً في خدمة المجتمع الغربي. فصارت العودة إلى العبرية تحمل معنى دينياً يتضمن العودة إلى الجذور المسيحية التي أُوحيَ أنها كانـــت يهودية، أو مكتوبة بالعبرية على الأقل. فصدرت أول طبعة عـــبرية للكتاب المقدس في إيطاليا عام (1488)، ثم طبعة التلمود عام (1508) في البندقـــية. وبين (1492 و1755) بدأت تصدر ترجمات بالعبرية للاهوتيين وفلاسفة ومؤرخين وشعراء أوربيين غير يهود.

وحـــتى هيغل في (فلسفة التاريخ) ينقل صورة الشعوب الشرقية كمـــا تنعكس في مرايا النص الديني العبري. فتبدو ديانات المنطقة "عبادات وثنية وحسية وطبيعية فاقدة لكل ما هو روحي". ليستنتج أن "الحواسية - التعامل مع العالم بالحواس وحدها ودون عقل بنائي أو تحليـــلي، والقسوة هما صفتان شرقيتان". ويفسر قسوة الشرقي بوعـــيه الذي تحده الحواس. "ولأن حياة الشرقي هي الحياة الحسية وحســـب، ولأن الحسي هو ذلك الشكل من الوعي الذي لا يرتقي إلى مرتـــبة المفاهـــيم العامـــة، ولأن الطبيعة نفسها بالنسبة إليه هي المقـــدس الأعـــلى، فإن الإنسان يغدو بلا قيمة، أو أنه ذو قيمة هي الأكثر تفاهة".

ويخلّـــص هيغل الديانة العبرية من المؤثرات الثقافية الشرقية، رغم أنهـــا ديانة قامت في الشرق، ويلحقها بمسيحية غربية، ويقتلعها من موروثهـــا الثقافي وجغرافيتها الصحراوية ونموذج حياتها الرعوية.. ونـــزوعها إلى العنف الدموي.. ليعلن أن اليهودية هي بداية الغرب الـــروحي، أو هي بداية الروح الغربي، الذي كان العبريون أول من حـــرره مـــن أردية طبيعية وحسية كانت تغطيه في العالم الشرقي الواحـــد. فالإله العبري "يخلق الطبيعة والبشر، لكنه لا يتماهى مع

الطـــرفين". إنـــه يتعالى عليهما ويصبح "فكرة مجردة" و"نوراً نقياً" يتنزّل في يهوه.

وفي القـــرن الـــثامن عشـــر بدأت حركة "هاسكالا\ التنوير" اليهودية، والمواكبة لحركة "التنوير" في أوربا وأمريكا في القرن ذاته، (والـــتي تعـــود بجذورها إلى القرن السابق). لقد أطلق الفيلسوف مندلســـون هذه التسمية (هاسكالا) على الحركة. وكانت الدعوة موجهة إلى اليهود أنفسهم للخروج من عقلية الغيتو، وتبني ثقافات البلدان التي يعيشون فيها، وهجر البيديش (اللغة اليهودية الأوربية) والعـــودة إلى التمســـك باللغة العبرية، إضافة إلى استخدام اللغات الأوربـــية في الـــبلدان التي يعيشون فيها، والسعي لتحقيق المساواة المدنـــية. وكـــان أهـــم ما في هذه الحركة أنها أخرجت نفسها من الصـــيغة الدينية، ونادت برابطة دنيوية بين اليهود، و"حس قومي" بديل عن الرابطة الدينية. وبهذا بُعث الاهتمام باللغة العبرية في أمور خارج الدين. فظهرت أول جريدة بالعبرية باسم "ها يوم" (الفجر) عام (1886)، ودوريات أدبية مثل "ها شاهار" عام (1868). وكان أول شـــاعر (دنـــيوي) يكتـــب بالعبرية هو يهوذا ليب غوردون من ليتوانيا.

وقـد اصـطدم التنويريون الأوربيون بالكنيسة فقادهم هذا إلى تحديهـا في أمـور عديـدة كان أحدها الموقف من اليهود. إذ أراد التـنويريون تحقيق العدالة التي يجب أن تعني حسن التعامل مع اليهود. وكـان من الطبيعي أن يتفهم التنويريون الأوربيون السعي اليهودي للمسـاواة، الذي قطف أول ثماره مع انتصار الثورة الفرنسية. ولكن الإنجـاز الحقـيقي للتنويريين من هذا الجانب (تحقير كل ما هو غير يهـودي أو مسـيحي) كـان في "الموسوعة" الفرنسية التي سنأتي على ذكرها.

وقـبل ذلـك، في القرن السابع عشر، كانت قد ولدت الحركة البيوريتانـية. وهـي حركة داخل كنيسة إنكلترا في أواخر القرن السـادس عشر. وكانت حركةً لإصلاح الكنيسة، ومحاولة للتوفيق بـين الكنيسـة الكاثوليكية والبروتستانت الإصلاحيين الرافضين. فاصـطدمت بسلطة الكنيسة. ثم اصطدمت بالملك جيمس الأول. وطرحت مسألة السلطة المدنية. فتحولت بذلك إلى حركة ذات ظل سياسي، مما أدى إلى محاولة قمعها. وأدى هذا في النهاية إلى هجرة مكـثفة مـن البيوريـتان الإنكليز إلى أمريكا. وهم الذين أسسوا "نيو إنغلاند".

وهناك، ومع الشره الاستعماري الاستيطاني، والشره إلى التوسع والبحث عن الثروات في الدنيا الجديدة، ونظرة المستعمرين إلى السكان الأصليين على أنهم نوع من الوحوش (الحسّيّين) الذين لا يعبدون الإله ذاته، ويمارسون طقوساً غريبة، تبلورت لديهم فكرة التميز عنهم والشعور بأنهم شعب الله المختار. فالتقوا مع التفكير اليهودي.

وكانت المصطلحات والتعابير التوراتية قد دخلت منذ زمن طويل إلى لغة الكنيسة. ففي القرن الرابع عشر استخدمت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تعبير "الأسر البابلي" لوصف الإقامة في أفنيون بين (1309 و1377). وهي استعارة لـ "الأسر البابلي" الذي حدث لليهود، في القرن السادس قبل الميلاد، على يد نبوخذنصر، الذي رحّل اليهود إلى بابل. ولم يتوقف استخدام "بابل" بهذه المعاني، منذ دزرائيلي اليهودي في القرن التاسع عشر، (والذي كان يعمل في الأدب والسياسة لكي يفرض نفسه على المجتمع الإنكليزي الذي يرفضه، فيقول: "لن تتحول لندن إلى بابل")، حتى باترسون في كتابيه " الألفية الجديدة " و"النظام العالمي الجديد"، بعد حرب عاصفة الصحراء في مطلع التسعينات من القرن العشرين.

يقـــول باترســـون: "من موقع برج بابل، حيث تبلبلت الألسن وتفرقت كل أمم الأرض، هاهي تعود من جديد وتدخل في حلف عسكري واحد. وهاهي أمم الأرض، كما تقول النبوءات العبرانية، تشـــكل نظاماً عالمياً جديداً للدفاع عن إسرءيل، والانتقام من بابل بقصـــفها مـــن الســـماء؛ لأنها هي التي عذبت شعب الله وأغرقته بالدموع والأحزان".

وهو يمجد الصهيونية لأنها "كالبيوريتانية استجابت للعهد الذي أعطى فيه يهوه لبني إسرءيل الأرضَ المقدسةَ من نهر النيل جنوباً حتى أعالي الفرات". وعلى هذا الأساس كان اجتياح إسرائيل للقدس في حرب حزيران عام (1967) "أعظم حدث روحي في تاريخ الكتاب المقدس".

ويؤكد باترسون أن حرب "عاصفة الصحراء" في الخليج العربي كانـــت المعركة التي حسمت حرب الأربعة عشر قرناً بين الشرق والغرب، بين الإسلام ومنافستيه المسيحية واليهودية. ثم يستشهد بما أوردتـــه مجلة يو إس نيوز (في 27 آب 1990): "إن النزاع القائم في الخلـــيج الفارســـي ليس مجرد معركة من أجل الكويت، أو لبسط الســـيطرة عـــلى نفط الشرق الأوسط. إنه الفصل الأخير في حرب

قديمة تدور رحاها منذ أربعة عشر قرناً بين الشرق والغرب، بين الإسلام ومنافستيه التوحيديتين: المسيحية واليهودية".

وحتى الدعوة إلى نظام عالمي جديد هي بالنسبة لبات روبرتسون، مستشار الرئيس السابق بوش (الأب) أيام "عاصفة الصحراء"، في كتابه الذي يحمل عنوان "النظام العالمي الجديد"، ليست بعيدة عن التوراة. إذ يقول روبرتسون: "إن الكتاب المقدس هو الذي يعد بتلك الحكومة العالمية التي ستقضي على كل أعداء إسرءيل".

يقول إدموند ويلسون: "كانت بيوريتانية نيو إنغلند نوعاً من اليهودية الجديدة. يهودية موصوفة بتعابير أنكلو ساكسونية".

***

لقد استعرت بعض هذه المعلومات الأخيرة من مقالة لمنير العكش في مجلة "جسور" (التي يصدرها في أمريكا). وسأستعير منه مرة أخرى. فلعل في وضع هذه المعلومات بالتجاور ما يساعد على تفسير جانب مما يعجز العقل القاصر عن فهمه من جوانب الأسباب الكامنة وراء التماهي ليس بين السياسة الأمريكية والسياسة الإسرائيلية فحسب، بل وبين الإنسان الأمريكي، أو الغربي، العادي

وبين ما تفعله الدولة اليهودية أو يفكر به الناشط الصهيوني. فحين، ونحن في مطالع عام (2002) تستفرد إسرائيل بكل ما لديها من تسلح أمريكي، بالشعب الفلسطيني الأعزل، الذي لم يعد لديه خيار إلا الموت، وتستفحش في القتل والهدم والاعتقالات والتهجير وتجريف الأراضي، أمام شاشات التلفزيون، ولا تتحرك حتى الجمعيات الخيرية أو الإنسانية في أمريكا، ولو بإصدار بيان استنكاري، لا بد لنا من البحث عما يساعدنا في فهم ذلك بأكثر من القول إن المصالح الأمريكية تقتضي من الولايات المتحدة أن تساند إسرائيل. يجب البحث في مكونات الوعي عند الإنسان الأمريكي، والعربي، العادي وأسس ذلك الوعي التي تجعله ينظر بهذه اللامبالاة إلى مجزرة من هذا النوع.

ولذلك لا بد أن نعود إلى التاريخ، والأمريكي منه تحديداً. وهنا أنقل أيضاً عن العكش:

كانت قوانين مستعمرات كل من بليموث (1636) وماساشوستس (1647) وكونكتكوت (1650)، كلها مستمدة من شريعة موسى. بينما كانت نصف قوانين نيوهافن مقتبسة حرفياً من أسفار التوراة.

لقد أطلقوا على أمريكا أسماء "أرض الميعاد" و"صهيون" و"إسرائيل الجديدة" و"أرض كنعان". وعبر جون كوتون، وهو الأب الروحي للبيوريتانية الأميركية، عن هذه الحتمية القدرية في موعظة له قال فيها، قبل أن يتوجه إلى العالم الجديد لتأسيس مستعمرة خليج ماسّاشوستس: (إن اللّه حين خلقنا ونفخ فينا روح الحياة أعطانا أرض الميعاد "أميركا". وما دُمْنا الآن في أرض جديدة فلا بد من بداية جديدة للحياة نعمل فيها من أجل مجد "بني إسرءيل"، هذا الشعب المختار المتميز).

وقد صاغ جون وينثرب، زعيم البعثة البيوريتانية إلى ماساشوستس، ذلك كله في موعظته التي ألقاها في سفينة الهجرة عام (1630). فشرح لمن فيها قصة "العهد" بين "بني إسرائيل" و"يهوه" في سيناء، وألهب حماسهم حين جدد هذا العهد معهم. و اختتم موعظته بما قاله موسى للإسرءيليين: إنكم أنتم أيضاً "مقبلون على الأرض التي حلف الرب لآبائهم إبراهيم وإسحاق و يعقوب أن يعطيهم إياها". ثم أخبرهم بأن مصير أميركا كله مكتوب في هذا "العهد".

وبعد انتصار الثورة الأميركية استهل الحاكم جونثان ترمبل خطبته إلى الشعب الأميركي بتلك الكلمات التي قالها يهوه لإسرءيل

في سفر التثنية: "أنت مقدس عند اللّه. لقد اختارك اللّه لتكون شعباً فوق كل الشعوب".

كـــانوا يعتقدون أن هناك تطابقاً بين خروج العبرانيين من مصر لاســـتعمار فلسطين وقصة خروج البيوريتان من بريطانيا لاستعمار أميركا. حتى أن المؤرخ جون فيسك يرى أن "كومنولث المستعمرات البيوريتانـــية" و"فيدرالـــية الـــتوراة" تأسسا على الموجة الأخلاقية الـــيهودية، وأنـــك "حيث ترى تاريخاً يصنع في أميركا تجد تاريخاً أمريكياً يهودياً".

ولطالمـــا اعتقدوا بأنهم ما جاؤوا إلى "أرض الميعاد" الأميركية إلا لتأسيس دولة "عبرية" تحكمها شريعة موسى على صورة الدولة التي كـــان يحلم بها الغزاة الإسرعيليون القدامى. أما أولئك "المتوحشون" الذيـــن يعارضـــون "دولة إرادة اللّه"، وما أصبح يعرف لاحقاً بـــ "القدر المتجلي"، (وهو مبدأ شوفيني يرى أن التوسع الاستعماري في أمـــريكا لـــيس محتوماً فقط، بل هو مقدر من الله)، فإنهم ليسوا إلا مخلوقات الشيطان التي أحلَّ اللّه لشعبه المختار أن يبيدها.

هـــل يلـــتقي هذا الكلام مع تصريحات رجال الدين الأخيرة في إسرائيل المعاصرة التي شبهوا فيها العرب بالأفاعي والعقارب، والتي

يقولــون فيها إن الله قد أخطأ حين خلق العرب، وأنه لا حل أمام الإسرائيليين إلا بإبادتهم؟

وقبل أن يبدأ فردريك جاكسون تيرنر بتسمية عمليات الإبادة، "تمديناً للمجاهل المتوحشة"، كانت العمليات تستلهم معناها المقدس مــن مســيرة موسى إلى أرض الميعاد. وليس شعار "الهندي الصالح الوحيد هو الهندي الميت" إلا إعادة صياغة للشعار اليهودي "الجنتيل الصــالح هو الجنتيل الميت". فالجنتيل هو كل من ليس يهودياً. إنهم مــن ينـــتمي إلى "الأغــيار". وهــو الشعار الذي ستتبناه الحركة الاســتعمارية الاســتيطانية في كافة أصقاع الأرض. وستبرر إبادة شــعوب بأكملها، واسترقاق شعوب بأكملها بعد نقلها على سفن الرقيق كما تنقل البهائم.

ولم يكــن تعلم اللغة العبرية - كما يقول منير العكش - بطراً أو زخــرفاً أو تــرفاً للواعــظ والكاهن والسياسي في المستعمرات الجديــدة؛ بــل كان أساس البنيان الثقافي لكل متعلم متنور. لهذا لم يكــن الكتاب الأول الذي طبع في أمريكا هو الإنجيل. ولم يكن كتاباً في الأدب أو النحو الإنكليزي؛ بل كان كتاب "مزامير داود". وكــان كتاب "النحو العبري" قد طبع في هارفرد منذ (1735)...

وعـــندما تأسست جامعة هارفرد في (1636) كانت العبرية هي اللغة الرسمية فيها.

ويقول أندرس ستيفنسون مفسراً معنى تأسيس الولايات المتحدة ذاتهـــا: (مـــن خلال تأسيس إسرائيل الجديدة "الولايات المتحدة" ســـيتمتع هـــذا الشعب المختار بحق مطلق وشامل ومقدس في هذه الأرض، وســـيبدأ بإعادة صياغة العالم وتهيئته لحرب نهاية التاريخ. بذلـــك يتحقق العهد بين يهوه وشعبه... إن كل مصير العالم معلق عـــلى هـــذا العهد ! وقد جاء البيوريتان للتأكيد على هذا البعد في قضـــية اختـــيار الله لهـــم وعهده معهم... إن البيوريتان يتحملون مســـؤولية كبرى في خروجهم إلى إسرءيل الجديدة. فبهذا الخروج صـــارت رســـالتهم على الأرض صورة حرفية لرسالة بني إسرءيل وصار العهد مع يهوه يشملهم أيضاً).

ولـــيس مـــن الصعب استقراء معنى أن يطبع الإنجيل والتوراة في كـــتاب واحد، اسمه "الكتاب المقدس \ The Bible"، بحيث يكون الـــتوراة هـــو العهد القديم The Old Testament، والإنجيل هو العهد الجديـــد.The New Testament وببساطة قاموسية يمكن أن نعرف أن كلمة،Testament لا تعني العهد فقط؛ بل تعني الميثاق والوصية.

فهل نستغرب بعد ذلك أن يحس الأوربي، المسيحي البروتستانتي، أو البيوريتاني، أنه قريب إلى اليهودي، أكثر من قربه من شعوب العالم الأخرى على الأقل (والتي هي متخلفة وغير مسيحية وغير بيضاء)؟ وأن يتفهم مطالب اليهودي في مناطق أخرى من العالم وأن يساعده في تحقيق هذه المطالب وفي تبرير الأساليب المتبعة لتحقيقها أياً كان نوعها؟

***

لقد دخل في وهم بعض المستوطنين الأوائل في أمريكا، أو أرادوا أن يتوهموا، أنهم لا يستعمرون الأرض ويسلبونها من سكانها الأصليين، بل هم ينشرون دين الله. وبالتالي فهم ليسوا مستوطنين استعماريين، بل هم مبشرون ذوو قدسية ورسالة تنويرية. وحتى حين تنزع عنهم الصفة الدينية التبشيرية فهم في مهمة تحضيرية. وكانت البعثات التبشيرية الدينية مواكبة لموجات الاستيطان أو هجمات الجيوش. وكثيراً ما كانت سابقة لها وممهدة لعملها. وحين تتعرض البعثة التبشيرية للمضايقات، أو تنكشف حقيقة مهمتها وتتعرض للقتل أحياناً، كان من السهولة بمكان تبرير تجييش الجيوش لإنقاذ رسل الرب أو الانتقام لهم.

وعـــلى هذه الفكرة ثمة مقولة هندية أمريكية طريفة تقول: "لقد جاءنـــا الرجل الأبيض، وكانت معنا الأرض ومعه الكتاب المقدس. ثم انتهينا إلى حيث صارت معه الأرض وظل معنا الكتاب المقدس.. والويسكي".

إضافة إلى ذلك فإن السعي الصهيوني لمحو الشخصية الفلسطينية مـــن التاريخ والحاضر يتلاقى مع تفكير غربي استعماري تعامل مع العـــالم كله على هذا الأساس. وهذا ينطبق على النظرة الأوربية إلى شعوب العالم من خلال موقف عرقي واضح.

المســألة، إذاً، ليســـت مســـألة إعلام فقط. هناك تماهٍ في أسس الـــتكوين العقـــلي والوجداني. وهذا التماهي يُبنى على أسس دينية وعرقـــية. ولكنه يرتكز أيضاً على مبادئ مستقاة من العلوم الطبيعية والإنســـانية والدينـــية. وثمة عملية تزوير ودمج تقوم على نظريات وأبحاث تظهر لقارئها بمظهر الأكاديمية والعلمانية.

فـــنظرة الأوربي (الأبـــيض) إلى الشعوب الأخرى كلها هي نظرة الإنســـان إلى الحشرات. وقد تم التأكيد على هذه المقولة في دراسات كـــان للكـــثير مـــنها صفة الأكاديمية. فالحشرات لها نظامها الطبيعي (البدائي) الذي تعيش عليه منذ بدء الخليقة. ولذلك فإنها لم تتطور. لقد

تأقلمت مع بيئات ومناخات وظروف متنوعة وغريبة. قد تثير حياتها الفضول أو الاهتمام للدراسة أو الفرجة. ولكن حياتها كلها لا قيمة لها.

من يهتم لقتل الذباب أو البعوض أو النمل؟ لا تخف. سيعود هذا الصنف إلى التفريخ. فهذه الشعوب، مثل الحشرات، كثيرة العدد كثيرة التوالد. لا أهمية لفقدان أعداد كبيرة منها أو قتلهم. وقد يكون ذلك القتل ضرورياً. يجب التخلص من الحشرات المزعجة إذا كان "الإنسان" سيعيش مكانها.

ويجب أن توضع هذه الدراسات في سياق موجة الاستشراق أيضاً. وهذه الأخرى من ضمن تيار علم الأقوام (إتنولوجي) وعلم الإنسان (أنثروبولوجي)، الذي يحدد كيف يجب أن يرى الغربي المتعالي ذلك العالم الدوني، لكي يعرف كيف يتعامل معه ويخضعه. والأنثروبولوجيا، في حقيقتها، هي دراسات الإنسان الغربي على البشر غير الغربيين. وهذه الدراسات تنقسم حسب موضوع الدراسة إلى اختصاصات وتفرعات في علم الأقوام والاستشراق واختصاصات حول الحشرات والديدان والأسماك.

وإذا وقفنا، بعد ذلك، عند الاحتجاج ومبرراته لا نجد ما يساعدنا. إن الغربي يفهم معنى حرمة البيت، مثلاً، ويحتج بكل

وسـيلة ممكنة على أي اقتحام لحرمة أي بيت. ولكن هذا لا ينطبق على اقتحام وجر حيوان لدراسته أو قتله، ولا ينطبق على نبش مخبأ النمل لدراسة طريقة عيشه، ولا على تخريب خلية نحل لأخذ عسلها، أو خلية دبابير للقضاء عليها.

وكذلك الأمر عند متابعة المصالح الغربية ليس هناك ما يمنع من إبادة البشر والغابات وتلويث المياه أو تجفيفها، وتهديم الأوابد الحضارية.

هنا يشتغل منطق آخر هو منطق الإنسان في التعامل مع المخلوقات الأخرى.

فالأمريكي، والأوربي الغربي قبله، لا يتعب نفسه في الحديث عن حقوق أو أصول. ليس هناك إلا حقه هو في الوصول إلى أي مكان بفضل القوة، وخدمة للأهداف التي يعلنها هو. وبهذه القوة يهدم التاريخ والحضارة ويبيد البشر ويفرض مشروعيته. وهو يعطي الآن هذه القوة لإسرائيل التي تريد، ويريدها، أن تفعل مثل ما فعل. وهذه لا تكتفي بالقتل والتدمير ومحو الشعب ذاته كما فعلت الولايات المتحدة، بل تريد، زيادة على ذلك، أن تمحو تاريخه، لكي تمد جذورها في قبوره.

هذه الشعوب الأخرى (الأغيار) فائضة على الحياة ولا بأس من، وأحـــياناً يجـــب، التخلص منها لإفساح المجال أمام نخبة بني البشر. ولذلـــك فإن ما يمكن أن يصل إلى أسماع الغرب عن أنباء المجازر في العـــالم "الآخر" لا يمكن أن يُحدِث الأثر الذي نتوقعه. فالذين يقتلون ليسوا بشراً كما هم البشر هناك. إنهم "أنواع"، وليسوا شعوباً. وهم "فصـــائل" من أنواع قد لا يتم التحرك إلا للحفاظ عليها ولأسباب بيئـــية، مثـــلما يـــتم الحفاظ على بعض أنواع الفيلة أو الأسماك أو السلاحف. ولكن الشعوب لا علاقة لها بالتوازن البيئي. بل إن بعض بني البشر "يجب" أن يزولوا ولو بمجازر مدبرة ومتعمدة.

إن مجازر أو مذابح كهذه جزء من التراث المطلوب، والذي نُفذ قســـم كـــبير منه في تأسيس "إسرائيل" الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكـــية، عند ذبح الهنود الحمر. إنها المواجهة ذاتها بين الشعب المختار و (الأغيار). وهي مواجهة أخذت تسميات مختلفة: "شعب مختار في مواجهة كنعانيين" و"حضارة في مواجهة وحشية" و"عرق أبيض في مواجهة عرق ملون".

وفي شـــرقنا العـــربي هناك ما هو أكثر من الروح الصليبية التي كانت مشتعلة في أوربا و لم تنطفئ تماماً من النفوس، وإن كانت قد توارت قليلاً في السياسة المعلنة.

هـــناك عوامل أخرى تتدخل في الأمر. فمنذ هانيبال والإسكندر المكدوني كان هناك ذلك الاحتكاك العدائي مع الغرب. وقد استمر عـــبر الفـــتح العـــربي للأندلس ثم إخراج العرب منها، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتح العثماني حتى الاستعمار الأوربي.

ومـــن خـــلال التوق (المسيحي اليهودي) المشترك إلى فلسطين والقـــدس كانـــت العملية أكثر سهولة، لجعل العملية حضارية و.. تبشيرية في آن، ثم حضارية واستعادة حق ضائع في آن آخر.

فاعتماداً على العداء للعرب والمسلمين في أسبانيا كان من السهل التبشـــير بالحروب الصليبية. وفي ظل الدولة العثمانية التي اجتاحت أوربا الجنوبية صار العداء لما هو شرقي المتوسط من شعوب تحصيل حاصـــل. وفي كـــثير من الأدبيات الأوربية صارت كلمة "تركي" تستخدم لتعني العربي أو المسلم عامة.

ولذلك كان من الممكن تهويد العقل المسيحي الأوربي في التطلع إلى أرض الميعاد، أو إلى مسقط رأس المسيح، ومرتع رسالته.

وبهـــذا لم يصبح التوراة هو المرجعية الدينية لليهودية والمسيحية فقط، بل صار هو المرجعية الوحيدة للتاريخ المتعلق بالمنطقة. لقد بدأ الـــترويج إلى فكـــرة أن معرفة منطقة المسيح تستدعي الرجوع إلى

الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. ونتج عن ذلك أن فهم تاريخ المنطقة يستدعي الرجوع إلى التوراة (العهد القديم) أيضاً. وهذا يتضمن القبول بتاريخ إسرءيل كما ترويه الدراسات التي تتخذ التوراة مرجعاً لها.

بهذا نتلمس كيفية فرش الأرضية للتماهي اليهودي - المسيحي الأوربي (والأمريكي طبعاً) وبحيث تصبح المرجعية اليهودية - عبر التوراة - هي المرجعية الوحيدة عن التاريخ.

يقول عفيف فراج في مقاله "المصادر الثقافية الشرقية للديانة العبرية " (الآداب أيلول 2000): "في (1839) اكتشف البريطاني السير أوستن هنري لايارد مدينة نينوى السومرية واكتشف فيها مكتبة آشور بانيبال (668 - 633 ق م)، وفيها 30 ألف لوحة فخارية مرقشة باللغة الأكادية. وأهم هذه الألواح اللوح الحادي عشر من ملحمة غلغامش الذي يحكي قصة الطوفان التي كتبت في نهايات الألف الثالث ق م (2100). ويكون أوتنابيشتم بديلاً أقدم لاسم نوح، الذي اختاره الإله أنكي لبناء الفلك وإنقاذ الأجناس".

ويضيف: "وقد فجر الاكتشاف قنبلة في دوائر الدراسات الأكاديمية التوراتية واللاهوتية والاستشراقية. من كان يتصور وجود

قصة الطوفان قبل المصدر التوراتي، وبلغة البابليين والآشوريين أعداء شعب الله المختار؟".

فــبعد تحديد التوراة مصدراً وحيداً للتاريخ، والزمن الذي يحكيه عــن العــبرانيين بدايــة لــزمن التاريخ الوحيد للمنطقة تأتي هذه المكتشفات لتلغي المسلمات التي ترسخت عن هذا التاريخ، ولتقول إن هــذه المــنطقة كانت مسكونة بحضارات أقدم بكثير من الزمن التوراتي. وتقول أيضاً إن المنطقة لم تكن جرداء وقاحلة يسكنها بدو همج، أو غابات يسكنها متوحشون.

والأمــر ذاته حدث بعد اكتشافات إيبلا الأثرية التي تعيد تاريخ الإنسان في المنطقة إلى ما قبل المرجعية التوراتية بقرون عديدة. فقد استبســل علماء الأثريات الإسرائيليون وأنصارهم للادعاء بأن هذه المكتشــفات تؤكــد الــرواية التوراتــية. ولكن العلماء الآخرين المشــاركين في الحفــريات والذين فكوا رموز المكتبة الإيبلية الهائلة دحضوا هذه الدعاوى، وأكدوا أن هذه الأسفار كلها لم تأت على ذكر أي شيء متعلق بمملكة داؤود أو سليمان.

هــذا في الوقت الذي تعجز فيه الحفريات الإسرائيلية، والغربية الموالية والمتماهية معها، عن اكتشاف دليل واحد في فلسطين يساعد

عـــلى تثبيـــت الادعاءات الصهيونية فيها، أو يثبت وجود أي من الأوابد التي تدل على قيام "حضارة" عبرانية.. بل إن كيث وايتلام يدقق ليكتشف أن ما كان يسمى مملكة سليمان (والتي يدعي اليهود أنهـــا ممتدة إلى الفرات) لم تكن أكثر من زعامة عشائرية صغيرة - ليســـت حتى قبلية - في مكان صغير ومحدد من فلسطين. ويذهب بعضهم إلى القول إن ما كان يسيطر عليه سليمان لم يكن أكثر من حصن داخل المدينة (غيتو آخر).

***

ولكن الصورة لا تكتمل حتى الآن.

لا بد من فهم المنهج العلمي الأكاديمي الذي دس الفهم اليهودي في صلب الثقافة الأكاديمية الغربية.

ولعل قصة الإنسيكلوبيديا (الموسوعة الفرنسية) تحمل مزيجاً من إعادة اخـــتراع العالم وتقديم الصورة المرغوبة عن الآخرين،، والملائمة للموقف المسبق عنهم. وهذه المرة كان هؤلاء هم العرب والإسلام بالتحديد.

تقع هذه الموسوعة في سبعة عشر مجلداً. وكانت بإشراف ديدرو وجـــان لو رون داليمبير، وبمساهمة من فلاسفة بارزين أمثال فولتير

ومونتسكيو وجان جاك روسو. وهي أعظم الإنجازات الفلسفية لعصر التنوير الفرنسي.

كان دو اليمبير من كبار فلاسفة عصر التنوير الفرنسي. وقد كتب إلى فولتير أيام اشتغالهما بالموسوعة: "سيبين الزمنُ الفارقَ بين ما كنا نفكر فيه وما قلناه - يقصد ما كتبناه في الموسوعة".

أما ما كانوا يفكرون به فهو شيء مختلف تماماً عن النار التي أضرموها بوقودهم المعرفي وبأقوالهم ذات المعنيين، الظاهر والمقصود الحقيقي.

لقد كانوا في مجملهم متنورين. ولهم موقف متناقض مع الدين. فهم يرون فيه العائق الأساس في طريق التقدم الأوربي. غير أن سطوة الكنيسة لم تكن تتيح لهم المجال للتعبير بحرية عن أفكارهم هذه. فكان أن لجأوا، كما يلجأ المثقفون والأدباء عادة، إلى المجاز والتورية والرمز وما إلى ذلك.

وقد نشرت الباحثة الأمريكية الشابة ربيكا جوبين بحثاً طويلاً في مجلة "الدراسات الشرق أوسطية" بعنوان "الإسلام والعرب في نظر الإنسكلوبيدي". سنقدم هنا تلخيصاً للأفكار الواردة فيه:

أراد هــؤلاء الفلاســفة أن ينــتقدوا المسيح والكنيسة والدين المسيحي والإنجيل؛ ولكنهم بدلاً من ذلك وجهوا انتقاداتهم إلى النبي محمد وإلى الإسلام والقرآن.

وكـــان فولـــتير قد نشر مسرحية بعنوان: "محمد نبي التعصب: فاناتيزم" متأثراً، ومعجباً، بالهجوم الذي كان قد شنه بيير بايل على الـــنبي محمد من قبل، فصوره على أنه الرجل الذي استغل سذاجة الجماهير لكي يستعبدها، ويشبع تطلعه إلى السلطة.. والنساء.

وتقـــول الكاتـــبة: "فإذا وضعنا في الحسبان ما هو معروف عن احـــتقار فولتير للمسيحية، وقوله بضرورة إيجاد الذريعة للتعبير عن أي نقد للدين، توقعنا أن يكون فولتير قد استخدم محمداً بديلاً عن المســـيح. وبهـــذا أفترض أن فولتير كان قادراً على مراوغة الرقابة ومهاجمة الأسس التي تقوم عليها المسيحية".

إنـــه هجوم على الدين بالالتفاف حول محمد لإيصال فكرة لا يدفعـــون ثمن الإعلان عنها. فمن ذا الذي سيهتم بالدفاع عن النبي محمد في الغرب؟

وكـــان هذا النوع من الأدب المجازي، الذي يوجه انتقاداته عن طـــريق الحديـــث عن مكان آخر أو أشخاص آخرين، منتشراً في

أوروبـــا. فبعد عصر الاستكشافات الجغرافية توسعت المخيلة الأدبية الأوربية، وبدأت كتب الرحلات والمغامرات في بلدان غريبة، حقيقة أو متخـــيلة، تظهر. ومنها "رحلات غليفر" لسويفت، و"كانديد" لفولتير نفسه، و"العاصفة" لشكسبير، و"روبنسون كروزو" لدانييل ديفو، و"بلد العميان" لويلز.

والأمر شبيه بموجة أدبيات الخيال العلمي المعاصرة (وأفلامه) التي اندفعت بعد غزو الفضاء والثورة التكنولوجية.

ولكـــن هـــذه الكتابات القائمة على المخيلة كانت تختلف عن كتابات المستشرقين والأنثروبولوجيين والإتنولوجيين التي تدعي أنها تقـــدم الحقـــيقة عـــن الأقوام في المناطق الغريبة أو المجهولة التي يتم "اكتشافها".

هـــذه كتـــب مصنفة على أنها أدب. وفي كل كتاب منها ينقل الكاتب بطله إلى بلد خيالي غريب مليء بالعجائب، ثم ينتقل معه في مغامراته في بلد العجائب هذا ضمن قصة مشوقة. ولم يكن القصد في أية حالة من هذه الحالات إطلاق العنان للمخيلة أو تقديم القصة المشوقة فقط، بل كان القصد تقديم مرآة فاحصة يستطيع بواسطتها توجيه النقد إلى المجتمعات الأوربية نفسها التي ينتمي إليها الكتّاب.

فالكاتـــب، هنا، يقدم ما يجبر قارئه على مقارنة مجتمعه به. وهو هـــذه المجـــتمعات البدائية الغربية. ففيها نجد أناساً أبرياء طيبين لم يتلوثوا بجشع الإنسان المعاصر، وطمعه وحبه للمادة. وهو يعيش في مجـــتمعات بســـيطة، ليس فيها استغلال أو سعي لاستعباد شعوب أخرى. إنها المجتمعات المناقضة تماماً لحالة المجتمعات الأوربية. وبذلك يقـــدم الكاتـــب انتقاداته القاسية للقيم والعادات والعقائد وأنماط السلوك في بلده.

إن الصـــورة الـــتي يرى الأوربي نفسه عليها في هذه المرآة هي صـــورة غير مريحة. ولكنه لا يستطيع الاحتجاج على الكاتب. فهو مختبـــئ وراء ســـتارة أنه يروي قصة خرافية أو يقدم مادة للتسلية. ولكن هذا لا يمنع أن بعض الطبعات المعاصرة من "رحلات غليفر" قـــد تم حـــذف فصول منها لها علاقة واضحة بتصوير الاستعمار واستغلال الشعوب.

واختيار فلاسفة عصر التنوير للإسلام والقرآن ومحمد كان يعني اختيار الهدف الذي يصبون من خلاله النقد القاسي على الدين دون أن يواجهـــوا اعتراضاً لدى القارئ الأوربي العادي. فالأوربي مهيأ سلفاً لقبول النقد للإسلام والتعريض به والسخرية منه.

تقول الكاتبة إن عصر التنوير الفرنسي "يتقدم بمفهومه عن العقل المطلـــق أمامنا عارياً، ومتجرداً من تظاهره بكونه بحثاً موضوعياً عن الحقـــيقة، وينكشف على أنه عقل متمركز على هدفه الحقيقي، أو عقل [ذرائعي] يسعى إلى قوته وتمجيد نفسه. وهكذا سأكشف عن بعـــض النقاط المعتمة من عصر التنوير الفرنسي بالكشف عن كيفية ابـــتكار الفلاسفة للكثير من قاموسهم الخاص من خطاب مؤسس سابقاً، وتلاعبهم بالمعطيات التاريخية لكي يخترعوا [شرقاً] يتلاءم مع أغراضهم".

هم إذن أعادوا اختراع الشرق لا بما هو عليه، بل بما يتلاءم مع غرضهم الذي يسعون إليه. وكانوا في ذلك شبيهين بمن يكتبون عن بلدان ومناطق لا وجود لها. مناطق يخترعونها من مخيلاتهم لكي تخدم أغراضـــهم. فالشرق، بالنسبة للمستشرقين، حسب ما يراه إدوارد سعيد، ليس إلا "خشبة مسرح ملحقة بأوربا" أي أنه ليس موجوداً بذاتـــه أو لذاته، بل هو موجود فقط وفق علاقته بالغرب، الذي هو معني بالحديث عن نفسه أكثر مما هو معني بالحديث عن الشرق.

أول دريـــئة أقامهـــا هـــؤلاء الفلاسفة في موسوعتهم هي عداء الإســـلام للعلم وتناقضه مع العقل. وكان الهدف الحقيقي هو القول

إن الديـــن، إجمـــالاً، والديـــن المسيحي تحديداً، متناقض مع العلم والعقـــل. والميدان الذي استطاعوا أن يجولوا فيه بحرية هو موضوع المعجـــزات. وقد تنطعوا جميعاً لإثبات أن معجزات النبي محمد هي خـــداع للعامة. ولكنهم أرادوا القول إن معجزات الأنبياء، كلها، مناقضـــة للعلم والعقل. وبينها طبعاً معجزات السيد المسيح الذي لا يجرؤون على انتقاده أو انتقاد معجزاته مباشرة.

يقرر ديدرو، مثلاً، أن أمية محمد تناغمت فوراً مع الكراهية المتأصلة لـــدى أتـــباعه تجـــاه أشـــكال المعرفة كلها. ولا حاجة بنا هنا لمجادلة هـــذه الفكـــرة وتبيان مقدار اهتمام النبي نفسه بالعلم والتعليم. فالمجال هنا هو مجال تقديم أفكار الموسوعة والتنويريين فيها دون مناقشتها.

تقـــول الباحثة: "وكانت فكرة المعجزات في الإسلام أرضاً خصبة لنـــية الفلاسفة في كشف دور الخداع في مسألة الوحي الديني. وعند تصـــويرهم للمســـيحية كـــان على الموسوعيين أن يخفوا مشاعرهم الحقيقـــية حـــول عدم الانسجام بين العلم والمعجزات، وأن الأنبياء طـــرحوا مســـألة المعجزات لخداع السذج من العامة. وهذا ما فعله ديدرو . ولكن الموسوعيين كانوا يستطيعون أن يتحدثوا بصراحة عن موضـــوع المعجزات في الإسلام. وهنا، وكما كان يفعل البحاثة في

العصـــور الوســـطى، كان الموسوعيون يسعون إلى دحض محمد من خـــلال التدقيق في مصداقية معجزاته"؛ لكي يدْعُوا الإنسان، بشكل غير مباشر، إلى إعادة التفكير في معجزات الأنبياء كلهم.. ومعجزات السيد المسيح بشكل خاص.

وما يكشف نية هؤلاء الفلاسفة الموسوعيين بجلاء هو امتداحهم لـــبعض الجوانب في الدعوة الإسلامية، وبعض الجوانب في الحضارة العربـــية، وســـط ذلك الهجوم الشنيع على الإسلام، وعلى سذاجة أتباعه العرب وغبائهم وجهلهم بالدرجة الأولى.

ومـــن هـــذه الجوانب التي أعجبتهم وكالوا لها المديح توصيف الإســـلام للذات الإلهية، وموقفه من الأصنام. ثم، وهو ما يستغربه المرء للوهلة الأولى، موقف الإسلام من الفنون.

فـــدو جـــاكور، لكي يتظاهر بالموضوعية ويتمكن من انتقاد المســـيحية في الوقـــت نفســـه، يقول إن القرآن ليس كله هراء. فتوصـــيف القـــرآن لله، أو توصـــيف الله لنفسه فيه، يبدو متميزاً ومقبولاً. ثم يستشهد بسورة "قل هو الله أحد" ليركز على: "لم يلد ولم يولـــد" من حيث أنها صورة رائعة ومنطقية لله عز وجل. يجب أن لا يكـــون مولـــوداً. ويجب أن لا يكون له أبناء. والغرض من

هذا، كما تقول الباحثة، هو نسف فكرة ابن الله التي تقول بها المسيحية.

كما يمتدح الموسوعيون موقف الإسلام من الأصنام ودعوته إلى عبادة الإله الواحد. ولكي يوصلوا فكرتهم الحقيقية يصل الأمر بهم حتى إلى امتداح الموقف الإسلامي من التصوير والنحت. والقصد، كما ترى الباحثة، هو انتقاد الانشغال الكنسي بصور المسيح والعذراء والصليب والأيقونات والزخرفات الكنسية التي لا تليق بمكان للعبادة.

ويستطردون بعد هذا المديح إلى ذكر الفتح الإسلامي الذي وصل إلى الاحتكاك بالمسيحية، والتأكيد على أن المسلمين دمروا كافة الصور والتماثيل التي وجدوها في كنائس البلدان التي فتحوها. وكان هذا في رأيهم عملاً مجيداً من قبل الإسلام. يجب أن لا ينشغل المؤمن بأية صورة تكون بديلاً عن تصوره لله الذي لا يُحد في شكل أو هيئة.

كما أن الموسوعيين امتدحوا مسألة أن الزكاة هي ركن من أركان الإسلام الأساس. وبعد شرح هذه "الفضيلة الإسلامية" يشيرون إلى أن المسيحية قد أهملت هذا الأمر الإنساني العظيم. وذلك أن الحضارة

المسيحية، كما كان يراها فلاسفة عصر التنوير الفرنسي، وأثناء ذلك العصر بشكل خاص، كانت تتناقض تناقضاً تاماً مع هذه الصورة الإنسانية. فالرحمة غائبة عن القلوب، والتعاون مفقود بين البشر، والسعي إلى تجميع الثروات هو الشغل الشاغل للجميع. بينما يرزح الفقراء تحت أعباء الجوع والفاقة والمرض ولا يهتم بهم أحد.

واشترك ديدرو ومونتسكيو وفولتير في تصوير تلك الحضارة المسيحية على أنها مغلفة بالانحطاط، والتعصب اللاعقلاني. وهي مهتمة بالطقوس السطحية أكثر مما تهتم بالقيم الخالصة. وأكبر دليل على ذلك إهمالها للفقراء.

وتأتي ضربتهم المفاجئة عند تمييزهم بين العرب والإسلام. فمع تأكيدهم على أن الإسلام معاد للعلم ومتناقض مع العقل، شأنه شأن أي دين آخر، كما يريدون أن يقولوا، إلا أن العرب أقاموا حضارة عظيمة وقدموا خدمات جلى للمدنية والعلم والعالم في عصر الرشيد والمأمون والمعتصم. وهي خدمات يعترفون أن الغرب استفاد منها فائدة هائلة للقيام بنهضته.

ولكن ذلك حدث عند العرب، كما قالوا في الموسوعة، بعد أن نوع العرب مصادر معرفتهم وبعد أن رأوا عدم الاكتفاء بالقرآن

والمعـــرفة الدينية (الإسلامية) عموماً؛ أي عند تركيز اهتمامهم على فلسفة اليونان وعلومهم والفرس وعلومهم والهنود وعلومهم. وهم يعتبرون أن هذا العصر الذهبي الحقيقي قد بدأ عند ابتعاد العرب عن الإسلام، الذي يعني تأكيدهم على الابتعاد عن الدين إجمالاً. أي أنه لا تقدم مع وجود الدين. والدعوة المبطنة هنا موجهة إلى الرأي العام الغـــربي لدفعـــه إلى تنويع مصادر معرفته، وعدم الاكتفاء بالمصادر الدينية.

بهذا نستطيع أن نعود من جديد إلى العبارة الواردة في رسالة دو اليمبير إلى فولتير لفهمها: "سيبين الزمن الفارق بين ما كنا نفكر فيه وما قلناه".

فمـــا قـــالوه هو هجوم عنيف على الإسلام والمسلمين، وتمييز قســـري بين العرب والإسلام بهدف نقد الكنيسة والمجتمع الفرنسي والأوربي عامة.

والتمييز بين العرب والمسلمين بالطريقة الواردة في الموسوعة تمييز قسري يتضمن مغالطات لا تليق بموسوعة معرفية، أو دائرة معارف. فهـــو قسري مغالط لأن الحكم العباسي الذي يبدون إعجابهم به، وبخدماتـــه للعلم والعقل والمعرفة، لم يبتعد عن الدين أكثر من غيره،

ولم يكـــن حكماً عربياً خالصاً. بل هو، في حقيقة الأمر، قام على إلغـــاء الـــتفرد العربي بالسلطة. إذ قام الحكم العباسي على أكتاف الفـــرس، بقـــيادة أبي مسلم الخراساني في البداية. ثم كان البرامكة حاشية هارون الرشيد الأساس. وهم فرس أيضاً. وكان الصراع بين الأمـــين والمـــأمون، بشكل ما، صراعاً بين العنصر العربي والعنصر الفارســـي. وقد انتهى بانتصار المأمون، أي العنصر الفارسي، على الأمـــين، الذي يمثل العنصر العربي. وبعد هذه المرحلة من السيطرة الفارسية برز دور المماليك الأتراك ثم البويهيين وغيرهم.

هـــي إذن صـــورة غير دقيقة، من هذا الجانب على الأقل. ومن الممكن مراجعتها ونقدها.

ولكن المشكلة التي تخلقها هذه الموسوعة هي أن الأسباب الداعية إلى هـــذا الموقف من الإسلام لم تعد موجودة. فقد صار المفكرون الغربـــيون قادرين على نقد الكنيسة والدين وإعلان الإلحاد مباشرة وبحـــرية تامـــة. إلا أن الموقـــف الذي فيها من الإسلام والعرب، والصـــورة الـــتي قدمـــا عليها، ظلا موجودين في عمل موسوعي ومـــرجعي كبير للأجيال اللاحقة.. حتى الآن. ولم يقم أحد بإعادة النظر في مادة هذه الموسوعة.

وما الذي يدعو باحثين غربيين الآن إلى إعادة النظر في موسوعة مرجعية كهذه ؟ ألأنها تقدم صورة غير دقيقة عن الإسلام والعرب؟ فلتكن هذه النظرة. ولتبق. فالعرب والمسلمون من بين الشعوب "الأخرى" التي لا تستحق التعب لتقديم صورة دقيقة عنها. الشعوب الأخرى لا وجود لها إلا كما يتصورها الغربي. فلتبق هنا إذاً.

ولكن يمكن أن نتصور ما الذي كان سيحدث لهذه الموسوعة لو أن الصورة المشوهة كانت عن اليهود. على الأقل ستتهم بمعاداة السامية والعنصرية. وستوضع على الرف لأنها من ترهات الماضي العنصري اللاعلمي. أما والنظرة إلى شعب غير أبيض، وللإسلام تحديداً، فما الضرر؟ ستظل أجيال كثيرة ترجع إلى هذه الموسوعة على أنها من مصادر المعرفة المعتمدة، فترى صورة الإسلام فيها على النحو الذي قدمه هؤلاء التنويريون الفرنسيون ذوو الأسماء الكبيرة في عالم الثقافة والفكر والأدب. وتتقبل هذه الصورة لعدم وجود مرجعية أخرى تناقضها.

وهذا بعض ما يفسر ذهول العقل الغربي، بعد أحداث أيلول (سبتمبر) (2001)، حين اكتشف أنه لا يعرف شيئاً عن الإسلام والعرب. واكتشف أيضاً أن الصورة النمطية التي كانت تقدم له لم

تعد كافية لتفسير ما يجري. فظهرت خلال أشهر قليلة، وفي معظم الـــدول الغربـــية، كتب جديدة عن الإسلام والعرب والشرق، مع إعـــادة طبع ترجمات القرآن. وكان سؤال الغربي لنفسه هذه المرة: كـــيف نجهـــل الإسلام الذي ينتمي إليه مليارات البشر، ونحن أهل العلم والبحث والموضوعية والدراسات الأكاديمية؟

***

كمـــا أننا، في النهاية، لسنا نحن الهدف في عملية التغذية المعرفية الـــتي تقدمهـــا الموسوعة. والآراء التي تناقشها لم تكن موجهة إلينا أصـــلاً. والرأي العام الذي صنعته الدراسات التوراتية والموسوعية وزورته، وضللته، ليس رأينا نحن. بل هو رأي الآخرين. وهي كتب ودراسات موجهة أصلاً إلى الآخرين. وكما يقول إدوارد سعيد في مقاله في الملحق الأدبي للتايمز "الشرق ليس شرقاً"، شباط (1 995): "ما من أحد من المستشرقين الذين أكتب عنهم يبدو أنه قد سبق له أن وضع في ذهنه شرقياً ما على أنه قارئ. إن خطاب الاستشراق.. مصمم كلياً لقراء ومستهلكين في الغرب المرْكز".

ويضيف وايتلام معقباً على عبارة سعيد، وهو يركز على الطريقة التي قدم بها تاريخ فلسطين: "وهذا ينطبق على الجمهور المستهدف

والفعـــلي لتدفق الأعمال حول تاريخ إسرءيل.. إنها ليست موجهة إلى جمهـــور فلسطيني أو غير غربي.. أكثر من ذلك إن الجمهور هو مبدئـــياً مسيحي ويهودي". وبعد قليل يضيف: "القراء هم أوربيون وأمريكيون وإسرائيليون".

وتكـــاد كافة الأبحاث والدراسات في العصر الحديث عن تاريخ اليهود (وقدر كبير من التاريخ غير اليهودي) تكون مقدَّمة من قبل أكاديميين وشارحين يهود، معظمهم، ولدرجات مختلفة، مأخوذون بخرافات تراثهم الخاص بهم. والحقيقة هي أن معظم المادة الهائلة التي تنشـــر في هـــذه الأيـــام عن اليهود إنما هي مكتوبة من قبل يهود وموجهة إلى اليهود وإلى الغرب فقط. ويقول جاكوب نويسنر "إن الدراســـات اليهودية، في جامعات أمريكا الشمالية، لا تعامل وفق المـــبادئ الأكاديمية، بل تعامل بوصفها حلبة يستكشف فيها اليهود جذورهم. إنها حقائق تعليمية يهودية موجهة إلى اليهود الآخرين". ويقـــول إسرائيل شاهاك: "وكافة الدراسات الحديثة عن اليهودية، والتي يقوم بها اليهود بشكل خاص، حتى يومنا هذا تحمل العلامات الـــتي لا تخطئها العين والدالة على أصولها: الخداع والتبرير والمجادلة العدائـــية، واللامـــبالاة، وأحـــياناً العداء المكشوف لأي تقصٍّ عن الحقـــيقة. فالدراســـات اليهودية حول اليهودية حتى يومنا هذا هي

دراســـات جدلية مع عدو خارجي غير يهودي أكثر مما هي جدل داخلي مع الذات".

ولكن ضغط هذه الموسوعات، في النهاية، لا يقتصر على القارئ الغربي وحده، أو القارئ المحايد في العالم غير المعني مباشرة بالصراع العربي الصهيوني، بل إنه وأمام الشعور بالحاجة العربية، وغير العربية في الـــبلدان الأخرى، إلى نقل الثقافة الغربية يمارس ضغطه حتى على العـــرب والمســـلمين. وبحيث تتم ترجمة هذه الكتب والموسوعات، إضـــافة إلى الأبحاث الاستشراقية، ثم تبني وجهة النظر التي فيها عنا نحن. أي أننا نحن أيضاً نتعرض إلى تبني رأي عدونا فينا.

ومثال على ذلك، بين أمثلة كثيرة، الموسوعة الإسلامية التي كتبت بمـــنطق عدائي للإسلام والمسلمين والعرب. فقد قامت دوائر عربية بترجمتها. ولم ينتبه المترجمون والناشرون إلى السم الذي في هذا الدسم الموسوعي إلا بعد أن كانوا قد قطعوا أشواطاً طويلة في الترجمة، وبعد صدور أجزاء منها، وقيام ضجة احتجاجية في أكثر من مكان على ما ورد فيها من حقد وعداء وتشنيع. فهذه الموسوعة تقدم الإسلام على أنـــه توليفة من مزج اليهودية بالمسيحية التي هي ليست إلا "اليهودية الآرامـــية". وكـــان الأمير طوسون باشا هو أول من أمر بترجمتها.

وحين وصل المترجمون إلى حرف الطاء اكتشفوا الورطة التي وقعوا فيها. ولكي لا يتلفوا ما أنجزوه قدموا الترجمة إلى الأزهر الذي صدّرها بمقدمة أشار فيها إلى تلك المغالطات عام (1932) في عهد الملك فؤاد الأول. وكان الشيخ علي عبد الرازق أحد المشاركين في الرد والتفنيد. ثم في عام (1995) تنشر الموسوعة كاملة بالتعاون بين دار نشر مصرية وأخرى خليجية. وتثور ضجة في الصحف العربية والمصرية منها بشكل خاص احتجاجاً على نشرها.

***

وبعد تمكن اليهود من مواقعهم الأكاديمية، وبعد إشباع الموسوعات بالمعلومات المرتبة لخدمة الهدف اليهودي، بدأت عملية مزدوجة في المراجعات التاريخية. وكان هناك لهذه المراجعات التاريخية ثلاثة أغراض لا يخطئها أي قارئ ممحص.

الأول هو غسل التاريخ اليهودي من كل شائنة. فأي حدث قام اليهود فيه بدور غير محمود تتم إعادة النظر فيه إما لنفي دور اليهود فيه، وإما لتبرير هذا الدور.

والثاني الذي يواكب الأول هو عملية "سرقة العبقريات". فكل عبقرية تأتي في التاريخ يتم اختراع نسب يهودي لها.

والـــثاني "احتكار المآسي". وقد تم ذلك من خلال إعادة النظر بمآســـي الشـــعوب الأخرى لطمسها أو تبريرها أو إنكارها نهائياً للإبقـــاء على مأساة اليهود على أنها المأساة لإنسانية الوحيدة. وهي تشـــتمل عـــلى المأساة اليهودية المعاصرة (الهولوكوست) والمأساة التاريخية (التيه والسبي).

ولنفصل قليلاً:

إن الأبحـــاث تُقدم بوصفها إعادة كتابة للتاريخ بغية تصحيحه. ولكـــن الكاتـــب اليهودي برنارد لويس يعترف أن " إعادة كتابة التاريخ تتم عادة لتحقيق أهداف سياسية ".

كما ينوه مايكل شرمر وألكس غروبمان في "ناكرو الهولوكوست" إلى أن: "الـــتاريخ الـــزائف هو إعادة كتابة للماضي من أجل أغراض شخصية أو سياسية".

ولكـــن إمكانـــية الاحتجاج، حتى الأكاديمي، على نتائج هذه "الأبحـــاث التاريخية" مصادرة سلفاً. فقد سارت هذه الأبحاث جنباً إلى جنـــب مع موجة "حارسة" واتهامية تصنف كل محتج عليها أو مشكك في قيمتها على أنه معاد للسامية.

ولنر كيف يتم الالتفاف على إمكانية الاحتجاج أو المناقشة:

في عـــام (1998) كتـــب إليوت هوروفيتز في مجلة "الدراسات الاجتماعية اليهودية" عن الطريقة التي تتم بها إعادة صياغة التاريخ اليهودي. وكان موضوعه الأساس هو الغزو الفارسي للقدس عام 614 والمجـــازر الـــيهودية التي رافقته لعشرات الآلاف من السكان المســـيحيين (تـــتراوح الأرقام بين 30 و90 ألفاً). فقد كتب القس جـــورج ولـــيامز (1840) أن اليهود " قد تبعوا الفرس من الجليل لإشباع رغبتهم الثأرية بذبح المؤمنين (المسيحيين) وتدمير كنائسهم "وخـــلال أيام قليلة سقط تسعون ألف مسيحي من الجنسين ومن كافـــة الأعمار". وظلت هذه المجزرة ماثلة في الأذهان وواردة في كـــل كتابة تاريخية عن تلك الفترة حتى حدوث "الهولوكوست". فصارت الكتابات منذ ذلك الحين إما أن تتجاهل هذه المجزرة، أو تغفـــل دور اليهود فيها. وفي إسرائيل، بعد (1967)، "صار توجه التأريخ الإسرائيلي، الأكاديمي والعادي، يتجاهل مجزرة عام (614) تجاهلاً تاماً" كما يقول هوروفيتز. وفي تاريخ الشعب اليهودي لبن ساســـون، الذي يدرِّس في الجامعة العبرية، "لا توجد كلمة واحدة تـــتعلق بالقتلى المسيحيين في الكتاب الذي يتعلم منه الآلاف من طلاب الثانوية والجامعة الإسرائيليين عن ماضيهم".

كما نشر جوناثان سكورش (اليهودي) مقالاً عام (2000) أشار فيه إلى رفض المؤرخين اليهودْ تقصي مساهمة اليهود في تجارة الرقيق الأفريقـــية إلى أمريكا، أو التعليق عليها. ويلاحظ أن مؤرخاً بارزاً مـــثل سالو بارون "حين يجد نفسه مجبراً على ذكر اليهود بوصفهم تجار رقيق، كما كان يحدث في الوست إنديز البريطانية، فإنه يشعر بالحاجـــة إلى تقـــديم المبررات، مع أنه لا يفعل ذلك مع تجار الرقيق الآخرين" بل يدينهم.

فمـــثلاً فـــيما يـــدان كورتيس الفاتح الشهير لأمريكا الوسطى للجرائم الشنيعة-التي ارتكبها بحق السكان المحليين، فإن الذرائع تقدم لتـــبرير أفعـــال زملائه الفاتحين المتحدرين من أصل يهودي أمثال بـــارتولومي دو لاس كاســـاس وهـــرناندو ألونسو. وبعض هذه التـــبريرات يبعث على الضحك. فالمؤرخ جاكوب رادر ماركوس، المخـــتص بـــتاريخ البرازيل، والذي يدين التورط المسيحي في تجارة الرقيق يتعمد ذكر دور اليهود في المنطقة لتثبيت ريادتهم في استيطان القـــارة الأمريكـــية. ولكـــنه يتجنب الحديث عن دورهم في تجارة الرقيق. فيذكر بطريقة مواربة أن عائلة يهودية ثرية كان لديها 280 عبداً في مزرعتها.

ومن الطبيعي أن الزنوج المستعبدين لم يكونوا يحبون سادتهم ومسترقيهم. ولكن الكاتب يرى المسألة من زاوية أخرى. فيقول إن الحقد على اليهود والتحامل عليهم (ويقصد العداء للسامية) كانا منتشرين في سانت دومينيك حتى بين الزنوج. وبالتالي فالعبيد الذين يكرهون مضطهديهم يصبحون معادين للساميين حين يكون هؤلاء المضطهدون يهوداً.

وفي البحث التاريخي المنحاز لليهود والمزور لتاريخ فلسطين لم يستطع الباحثون تجاهل مجازر ارتكبها اليهود في فترات قوتهم (التي يقررها هؤلاء الباحثون) في حق سكان المنطقة الأصليين. وذلك، ببساطة لأن تلك المجازر مذكورة في التوراة. ولكن تبريرات تلك المذابح موجودة بأكثر من صيغة.

ويورد وايتلام، وهو المتخصص في البحث عن جذور إسرائيل في المنطقة، قول الباحث التاريخي اليهودي و. ف. ألبرايت حول المذابح والإبادة العرقية التي ارتكبها اليهود في فلسطين القديمة بحق الكنعانيين،: "ومن موقف الفيلسوف المتجرد يبدو من الضروري غالباً أن يفنى شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو القدرات الأعلى. لقد كان من حسن الحظ.. أن إسرائيليي الغزو كانوا همجاً

مـــزودين بطاقـــة بدائـــية وإرادة في البقاء لا تلين، حيث أن إفناء الكنعانيين قد منع الخلط الكامل بين الشعبين".

ثم يكمل تبريره للقارئ الأمريكي على النحو التالي: ".. ونحن، الأمريكـــيين، ربمـــا كـــان حقنا أقل من حق معظم الأمم الحديثة الأخرى، وعلى الرغم من إنسانيتنا المتأصلة فينا، في الجلوس للحكم عـــلى إسرائيليي القرن الثالث عشر (ق م)، طالما أننا عن قصد أو لأسباب أخرى، قد أبدنا عشرات الآلاف من الهنود (الحمر) في كل زاوية من زوايا أمتنا العظيمة، وحشرنا البقية في معسكرات اعتقال كبيرة. لكون ذلك مما لا يمكن تجنبه".

ويعقّـــب وايـــتلام عـــلى هذا الكلام ساخراً أن هذا الباحث (الـــيهودي) لم يغير من قناعته حتى حين قامت النازية بقتل اليهود استناداً إلى المبدأ ذاته (إفناء شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو القدرات الأعلى.. لكون ذلك مما لا يمكن تجنبه).

***

ثم ننتقل إلى "سرقة العبقريات". فبعد موسى اليهودي، والمسيح الذي يصرون على يهوديته، يأتي محمد الذي هو من سلالة إبراهيم

اليهودي. وحتى بوذا هو تنويعة آسيوية على قصة موسى. والبوذية، مثل المسيحية، أخذت الجانب الوعظي من التوراة.

ولا يهمهم التدقيق كثيراً في التواريخ لمعرفة من سبق من (بوذا أم موسى). هم يطلقون الرأي. وليس عليهم الإثبات. بل إن على الآخرين أن يثبتوا العكس. وهم ينطلقون من مبدأ شبيه بمبدأ التشنيع و"الحكي على الناس". إذ المعروف أنه يكفي أن تقول إن فلانة سيئة السلوك حتى يتداول الناس هذه التهمة. ثم تقضي المسكينة حياتها كلها في السعي لنفي التهمة.

وهذا الأسلوب بسيط. يطلق يهودي ما في موقع علمي أو أكاديمي رأياً مرتجلاً، ولكنه مقصود وذو هدف. فيتلقاه آخر ويردده على أنه رأي علمي منقول عن العالِم. ثم تشتغل الماكينة الإعلامية لتعميم القول ونشره بين الطلاب والمتعلمين غير المتخصصين. فيتحول إلى مسلّمة. وبعدها يركض أصحاب الشأن للنفي وإثبات العكس إذا استطاعوا، أو إذا خطر لهم أن يفعلوا. وكيف لهم أن يلاحقوا المعلومة التي تحولت إلى ركيزة معرفية في ميادين متنوعة؛ دينية وتاريخية وأكاديمية وإعلامية.

ومن هذا القبيل ادعاء اليهود بأنهم هم بناة الأهرامات المصرية. والقول إن كريستوفر كولومبس مول القسم الأعظم من رحلاته

عـــن طريق مستثمرين يهود. ويصل بعضهم إلى حد القول إنه هو نفسه كان من أحد الأبوين يتحدر من أصل يهودي.

وحتى في أيامنا هذه تتكرر القصة ذاتها. لكنها لا نعرفها إلا حين تتحول إلى فضيحة. ومن قبيل ذلك الفضيحة التي تسبب بها تشارلي شابلن.

في كـــتاب سمير فريد "مدخل إلى السينما الصهيونية" يقول: لقد صـــنفت الدعاية الصهيونية فيلم "الديكتاتور الكبير" لشارلي شابلن عـــلى أنـــه صـــهيوني لمجرد أنه معاد للنازية، وكأن اليهود وحدهم يحـــتكرون العداء للنازية. وتحول حديث المظلوم في الفيلم عن العالم الجديد الذي يتطلع إليه بعد الحرب إشارة إلى أرض الميعاد في التراث اليهودي، بينما هو في حقيقته "إشارة إلى العالم الجديد الذي كانت تتطلع إليه الإنسانية بعد الحرب".

فقـــد حاولـــت الصهيونية دعوة شابلن ليصبح مواطن الشرف الـــيهودي الأول في دولة إسرائيل. وكذلك توجهت بالطلب نفسه إلى أنشتاين. ولكن الاثنين رفضا. وقال شارلي شابلن: "أنا لم أنكر أصـــلي أبداً. لكنني لا أتبناه. أنا رجل لا يختلف عن الآخرين. هل يقلـــل أصلي من شأني؟ هل يضفي علي أهمية أكبر؟ إن القول إنني

يهودي مثل القول إنني طويل أو قصير. إنه أمر لا علاقة له بالقيمة. ولا أعتقد أنه ينبغي إرسال اليهود إلى فلسطين. فمعنى هذا أن يتم إرسال الكاثوليك كلهم إلى روما".

وقد كنت شاهداً على شيء من هذا حين كنت في الهند في أوائل التسعينات (من القرن الماضي طبعاً). إذ فوجئت بحمى وطنية هندية في الصحف التي كنت أقرأها بالإنكليزية. وكلها تريد أن تنفي أن يكون طاغور يهودياً، أو أن له أية علاقة باليهود.

وتبين أن أحداً ما (هو نكرة فعلاً بالمعنى الثقافي والأكاديمي) قد أفلت كلمة في صحيفة بريطانية تقول إن طاغور ذو أصول يهودية. فانبرى المثقفون والباحثون والأكاديميون الهنود إلى نفي الأمر.

وحتى في الرسم.

وسنقف الآن عند الرسم المرتبط بالدين.

في البدء كانت عملية سرقة يسوع المسيح من أرضه وبيئته تتم بطريقة عنصرية؛ وذلك من خلال تقديمه شاباً أشقر جميلاً، بينما أغلب حوارييه سمر الوجوه، سود الشعر. ولكن الرسامين اليهود لم يقفوا عند هذا، بل تعدوه إلى تقديم يسوع نفسه على أنه يهودي. وبالتالي فإن مشاهد المعاناة (الجلجلة والصلب) تتحول إلى رمز لمعاناة

الـــيهودي نفســـه. وقد تم تبني المسيح من قبل اليهود نهائياً في القرن العشـــرين، لأنه كان الرمز الأفضل للتعبير عن معاناة اليهود، وخاصة في ما يتعلق بالمذبحة النازية (الهولوكوست) بعد ربطها بعذاب التيه.

وأفضـــل مثال على هذا التبني النهائي للمسيح في الفن على أنه يهودي يتجلى في أعمال الرسام اليهودي الشهير مارك شاغال.

ففـــي لوحته "الصلب الأبيض" تظهر جلية عملية تحويل المسيح إلى الـــيهودية. يقـــول كاتب سيرته فرانز ماير، "مع أن المسيح هو الشخصـــية الأساس في اللوحة، إلا أن اللوحة ليست مسيحية على الإطـــلاق. المســـيح يأتزر حول وسطه بمئزر ينتهي بخطين أسودين يجعـــلان المـــئزر أشـــبه ما يكون بالطيلس الذي يرتديه اليهود في الصلاة. وعند قدميه هناك الشمعدان اليهودي سباعي الأصابع..".

وفي لوحـــته "الصلب الأصفر" يبدو المسيح وقد وضع القلنسوة الـــيهودية على رأسه وأشرطة الصلاة على ذراعيه. " فشاغال يعتبر يسوع أحد أعظم الأنبياء اليهود".

ويـــتم المزج بين شخصيات العهدين القديم والجديد حتى تتحول شخصية إسحق إلى تمهيد للمسيح، ويصبح النذر بذبح الابن تقدمة لتضـــحية الأب (الـــرب) بابنه (يسوع). خاصة وأن إسحق يظهر

ممدداً على المذبح بذراعين مفتوحين يتهيآن ليأخذا شكل الصليب. ولكي لا يكون هناك التباس حول "الاستمرارية" بين العهدين ففي خلفية اللوحة يبدو ما يشبه المسيح وهو يحمل الصليب على كتفه.

وحتى في لوحة المسيح الطفل مع أمه هناك شخصية فرعية توحي بأن الطفل سوف يتم ختانه الآن.

***

وهنا نصل أيضاً إلى "سرقة المآسي". والمقصود هو إيصال الناس إلى الاعتقاد بأن الشعب الوحيد الذي تعرض لمأساة مريعة في العالم المعاصر وفي التاريخ هو الشعب اليهودي. وابتداء من التيه في سيناء إلى الدياسبورا (المنفى والشتات اليهوديين) إلى المجزرة النازية ليست هناك أية مأساة أخرى لأي شعب في الدنيا.

ومن أظرف الكتب الفاضحة في هذا المجال كتاب (الهولوكوست في الحياة الأمريكية) لبيتر نوفيك. وظرفه يأتي من كونه يجادل اليهود في أنهم ليسوا أصحاب أكبر مأساة.

فاللعبة المتعلقة بالهولوكوست (المذبحة النازية لليهود) هي ابتزاز العـــالم كلـــه، وكأن العالم كله كان نازياً، وبالتالي فالعالم كله

مســـؤول عن المجزرة التي نفذها فيهم النازيون. وكلنا نعرف كم اســـتترفت إســـرائيل والحركة الصهيونية من أموال ومساعدات ألمانـــية وأوربية للتعويض عن تلك المذبحة (التي يعاد النظر مؤخراً فـــيها وفي حقيقـــتها أو حقيقة تفاصيلها وأرقامها) منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن. ثم ابتزاز الأمريكيين أيضاً لأنهم "سكتوا عـــن تلـــك المجـــزرة". والابتزاز الحالي، الذي يتحول الآن إلى مســـاعدات عســـكرية ومالية لدولة إسرائيل، قائم على السؤال الاتهامي الموجه إلى الأمريكيين: هل ستسكتون مرة أخرى إلى أن يذبحنا العرب؟

ولكي يستمر هذا الاستتراف يجب أن يظل الهولوكوست مقدساً لا يتطرق إليه الشك. وكلنا نعرف بما جرى لروجيه غارودي وغيره من المفكرين والباحثين لمجرد أنهم دققوا في عدد الضحايا وقالوا: لم يكونوا الرقم كما أشيع.

فلأنهم شعب الله المختار يجب أن يعيشوا دائماً مع فعل التفضيل "أفعـــل". فهـــم يريدون أن يظلوا أصحاب "أكبر" عبقرية وأموال، و"أقوى" دولة، وفي الوقت ذاته أصحاب "أكبر" تيه و"أشد" عذاب و"أكبر" مجزرة و"أفظع" مأساة.

في كـــتاب بيـــتر نوفيك هذا فضح لمعركة من نوع غريب. إن المافيا اليهودية تحارب، وتعتّم على أية كتابة عن أية مأساة في تاريخ البشـــرية، وحتى في التاريخ المعاصر ، خشية أن تسرق الأضواء عن الهولوكوســـت الذي يبيض ذهباً، ويميزهم بأنهم أصحاب المجزرة " الأكبر ". فالكاتب يقول إن مجازر ستالين قتلت أعداداً أكبر مما قُتل من اليهود. وحتى هتلر قتل من الغجر أو من البولونيين أكثر مما قتل من اليهود.

وســـرعان ما يلجأ اليهود إلى اتهام الكاتب بمعاداة السامية لأنه يـــريد تحويـــل الأنظار، أنظار الأمريكيين والأوربيين تحديداً، عن " أكبر " فاجعة حلت بهم. ودائماً هناك ذريعة هي أن قتل الآخرين لم يكـــن محاولة إبادة للجنس أو الدين. فاليهود قتلوا لأنهم يهود. أما الآخرون فقد قتلوا لأسباب سياسية أو اقتصادية أو أمنية.

ومسألة أن تكون إبادة الهنود الحمر مأساة مريعة، هذه تصبح من الماضـــي المنســـي. وإذا تم تذكرها فهي مسألة لا تشغل البال. أولاً لـــيس هناك من يذكّر بها من أهلها. ثانياً هؤلاء من "الأغيار" الذين حـــل محلهم شعب مختار. ومرة أخرى حسب مقولة ألبرايت "يبدو من الضروري غالباً أن يفنى شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو

القـــدرات الأعـــلى". فهؤلاء وثنيون متخلفون مثلهم مثل سكان أوستراليا أو همج أفريقيا.. "نحن نتكلم عن البشر. لا عن هؤلاء".

وأكبر المعارك كانت للتعتيم على مجزرة الأرمن في مطلع القرن، والـــتي لا يشك أحد أنهم قد قُتلوا لأنهم أرمن. هؤلاء قد يتحولون إلى منافسين على ضمير العالم. فهم مسيحيون يمكن أن يؤثروا على الضمير الأوربي. وقد قتلوا لهذا السبب. وقاتلهم هو الخصم المشترك "الإســـلامي العثماني". ولكن الباحثين اليهود يجدون تبريرات حتى للعثمانيين في قتل الأرمن؛ بأنه كانت لديهم "أسباب معقولة" لحملة الإبادة. ثم يتم التخفيف من هول ما جرى بأنها إجراءات عسكرية في وقـــت الحرب أدت إلى موت هذا العدد الكبير من الأرمن عن طـــريق الخطأ. "عن طريق الخطأ". هذه هي الذريعة. خطأ الوالي أو العســـكر المرافقين، أو العقيدة الإسلامية. ولكن اليهود قتلوا "عن ســـابق إصـــرار وترصد" ولأنهم يهود. وقد قتلهم من يجب أن لا يقـــترف أمراً شنيعاً كهذا. المسيحيون. الأوربيون. البيض. العرق الأنقـــى.. وقد آن لهذا المقترف أن يكفر عما اقترفه، أو ساعد على اقترافه، أو تجاهل ما يجري.

وحتى الزنوج.

لقـــد سُرق الأفارقة من بيوتهم وقراهم وغاباتهم، وتم نقلهم على سـفن الرقيق في ظروف لا إنسانية فمات منهم عشرات الملايين في السـفن وفي الطـريق والسجون، ووصل الباقون بعشرات الملايين ليباعوا ويعيشوا عيشة الرقيق. وهناك ماتت أعداد كبيرة منهم أيضاً بسـبب سـوء الظروف المعيشية، وبسبب إباحة دمائهم على أنهم ليسوا بشراً أسوياء. وبعد قرون من الاسترقاق تم تحريرهم ليعيشوا عيشـة لا تقـل قسوة في مجتمع التمييز العنصري. وذلك كله لأن لونهم أسود.

يقـول لـك الكتّاب اليهود: إن لهذه المأساة أسباباً اقتصادية. ولذلـك فهي ليست أكبر المآسي. وقد يهمسون جانبياً: في النهاية هـؤلاء كانوا أفارقة ووثنيين وهمجاً.. وسوداً. انظر إلى أشكالهم. وإذا أعيـتهم الحـيلة في هذا الموضوع قالوا: على أية حال كانت مأساة اليهود في بابل أكبر، حين سباهم نبوخذنصر.

وحتى في مسألة التمييز العنصري الذي مورس ضد الزنوج تلعب عوامـل أخـرى للتعتيم على هذه المسألة. ففي الولايات المتحدة المعاصـرة، وبعـض الدول الأوربية، ما يزال التمييز العنصري ضد الزنوج والملونين هو سمة الحياة فيها. وتتفشى النظرة العرقية حتى في

الدول الأفريقية التي كان البيض يتحكمون فيها، كما كان الأمر في روديسيا وجنوب أفريقيا مثلاً، وهو ما اتفق على تسميته بـ "الأبارثيد" (مجتمع التمييز العنصري). ولكن هذا مما لا يجوز الحديث عنه على أنه مأساة للشعوب المحكومة بالتمييز العنصري أو التي يمارس عليها هذا التمييز، لأن الحال هو ذاته الآن في دولة إسرائيل المعاصرة التي تمارس التمييز العنصري ضد العرب.

ومرة ثالثة " يبدو من الضروري غالباً أن يفنى شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو القدرات الأعلى ".

ثم، بعد ذلك من يجرؤ على الحديث عن مأساة الفلسطينيين؟

***

ولكن الأمر لم يتوقف هنا.

كانت الهجمة التالية على المسيحية ذاتها.

هناك تيار انتقادي تحرري موجود في أوربا، وغيرها، يريد إعادة النظر في الأديان، وإلغاء القدسية عن الأحداث والأشخاص، وإعادة تفسير التاريخ. وليس غريباً عن الأذهان التيار الإلحادي المعاصر

الــذي يعــيد تفســير الأحداث التاريخية والدينية والتدقيق في سير الأنبياء والقديسين.

وقــد استفاد اليهود من ذلك أيضاً. فاندفعوا مع المتشككين إلى إعــادة قراءة التاريخ.. الديني تحديداً. وكان في وسعهم، ببساطة، التشكيك في كل ما يتعلق بالمسيحية، ناهيك عن رأيهم في الإسلام.

بــدأ اليهود يطرحون أن المسيحية ليست ديناً سماوياً. إنها فرع خارجي منبثق عن اليهودية. وفلسطين التي ظهر فيها السيد المسيح هي فلسطين اليهود. وقد قام المسيح نفسه من بين اليهود. وهو ليس إلا مجتهداً يهودياً متطرفاً، أو ضالاً.

وبــدا الأمــر كأنه بحث علمي مجرد في التاريخ الديني. وينطلق البحث من تساؤلات تبدو مبررة بالنسبة للباحث المتقصي في التاريخ.

وقــد انفتحــت شهية العديد من الكتّاب (اليهود وغير اليهود) على هذه الموضوعات. فظهرت محاولات عديدة لإعادة كتابة سيرة حــياة المسيح أو أحد الحواريين. وكلها كتب تريد أن تشكك في أصــول المسيحية الأولى أو في قيمة المسيحية ذاتها. وليس ذلك من مــنطق عــلماني أو إلحــادي، كما هي الموجة العقلانية التحررية الأوربــية، بل من منطق يهودي أكثر انغلاقاً وتديناً يسعى إلى إلغاء

قيمة المسيحية وأصالتها. ويريد أن يقول شيئاً واحداً هو أن المسيحية ليست تلك الديانة السماوية. وهنا يلتقون مع الإلحاديين. ولكنهم لا يكملون الطريق. فاليهودية هي الأخرى دين. ولذلك يقفون عند نفي المسيحية لكي يثبتوا اليهودية بديلاً عنها. فالمسيحية المشكوك فيها ليست أكثر من انشقاق مارق عن اليهودية قام به الحواريون كتاب الأناجيل أو رجال الكنيسة، أصحاب المصلحة في إيجاد دين جديد مستقل.

لم يعد يكفي أن تكون مسيحياً متعاطفاً مع اليهود. يجب أن تقرّ أن اليهودية هي جذرك وأصلك الحقيقيان. والتشبث بالمسيحية صار موقفاً رجعياً متزمتاً ضد العلم والتاريخ والحقيقة.

وحتى الغربيون صاروا يستغربون هذه الهجمة الكتابية على مرحلة المسيحية الأولى. فتستغرب إحدى الصحف مثلاً وتقول إن أول عمل لافت للنظر في هذا المجال هو لنورمان ميلر ذلك "النسونجي السكرجي" في كتابه "الإنجيل بالنسبة للابن". وهو يقدم فيه سيرة حياة المسيح مروية بلسان المتكلم.

وأصدر جاك ميلز - ناشر ومعد كتب سابق - (الله، سيرة حياة). كما صدر كتاب "بولس: عقل الحواري" من تأليف إي إن

ويلســـون. ويقـــول فـــيه إن المسيح لم يكن مسيحياً (أي صاحب دعـــوة)، ولم يكـــن مهتماً بالدين. ثم روبرت إيزنمان، المختص في دراســـة مخطوطـــات البحر الميت، إذ أصدر كتاب (جيمس - أو يعقوب - شقيق يسوع).

***

فمـــن بين التساؤلات التي بدأ طرحها، والتي تبدو منطقية: ماذا حدث لمريم العذراء بعد المسيح؟ هل أكملت حياتها في العذرية؟ أم أنها، بعد أن أدت رسالتها في ولادة يسوع، أكملت حياتها كامرأة طبيعية، فتزوجت وأنجبت؟

ولكـــن كثيرين من الباحثين البروتستانت، وأعداداً متزايدة من المفســـرين الكاثوليك، صاروا أكثر اقتناعاً أن مريم قد ولدت، بعد ولادتها ليسوع، أربعة صبيان أسماؤهم: جيمس (يعقوب) وجوزيس وجوداس (يهوذا) وسيمون، إضافة إلى أختين أو أكثر.

ويقـــول المعلقون المؤيدون لهذه الطروحات إن إعادة الاكتشاف الجديدة لأهمية جيمس، شقيق المسيح، تبين أن الكنيسة الأولى ظلت تضرب جذوراً عميقة في التراث اليهودي لفترة طويلة. وكانت هذه الكنيسة تتبع مبدأ "يسوع اليهودي".

ويصدر بيير أنتوان بيرهايم كتاب "جيمس، أخو يسوع". ويقول فـيه إن مريم تزوجت بعد ولادة المسيح، وأنجبت أبناء هم أخوة له. وهـؤلاء لم يتبعوا كلهم ديانته. وحتى أخوه ووريثه الديني جيمس، وبسبب ثقافته اليهودية العميقة، صار مرجعاً للمسيح نفسه في تقديم الحلول للمشكلات التي يواجهها في المجتمع الذي هو مجتمع يهودي.

بالنسبة للتراث المسيحي الغربي يعتبر بطرس هو الحواري الأكثر أهمـية وهـو الزعيم بلا منازع للكنيسة الأولى. ويعتبره الكاثوليك الـبابا الأول. وبهذا فإنه، وبموافقة بطرس الكاملة، قام بول (بولس) الرسـول بهداية الكفار الوثنيين الذين كانوا في فلسطين. ولكن هذا سـيتناقض جذرياً مع ما جاء في "أعمال الرسل" وفي رسائل بولس الرسـول ذاتها. إذ تؤكد هذه الوثائق أن القائد الأول ، قرابة عام خمسـين ميلادي، هو جيمس (يعقوب) "أخو الرب". وهو القائم عـلى كنيسة القدس. وجيمس كان هو المرجع الأساس في المسائل الفقهـية العويصة من نوع: هل من الممكن قبول الوثني في المسيحية قـبل أن يمر في اليهودية أولاً ؟ وفي كثير من المناسبات كان بطرس وبولـس ينصـاعان لرأي هذا الأخ جيمس. ويقولون إن الوثائق المـأخوذة مـن خارج الأناجيل تدل على أن جيمس كان شديد الاحـترام للقانون اليهودي. وظل قابلاً للمهتدين من غير اليهود في

المجتمع المسيحي. غير أنه طلب من المؤمنين الذين ليس لهم أصل يهودي أن يراعوا بعض القواعد القائمة على أساس يهودي. وقد عارض بشدة محاولة بولس، الذي كان يريد إعادة بناء هوية "إسرءيل"، وإعادة الاعتبار لدور القانون فيها. وبمعزل عن اتباعه لآراء يسوع فإنه في كثير من الأمور لم يكن من الممكن تمييزه عن اليهود الآخرين. وكان من الممكن أن يندهش لو أن أحداً قال له إنه الآن من أتباع دين جديد.

ما يتضمنه هذا الكلام بشكل غير مباشر أن هذه الأرض، قبل مجيء المسيح، كانت يهودية وفيها مهمشون وثنيون بذلت الجهود لهدايتهم أو إبادتهم. بعضهم اهتدى إلى اليهودية والبعض الآخر إلى المسيحية، أو إلى المسيحية عبر اليهودية. وكانت القوانين والأعراف والتقاليد والقوانين فيها يهودية. وعن طريق أخ للمسيح، والدور الخاص الذي قام به، تكون قد قبلتَ يهودية الأرض والتاريخ في المنطقة. وحتى ورود موضوعة "الوثنيين"، يجعل السكان الأصليين يشبهون الوثنيين البدائيين في كافة أصقاع الأرض التي غزاها الأوربيون ، والذين إما أن يتحضروا ويهتدوا، وإما أن يبادوا. ومن غير ذلك لا يستحقون أي اهتمام تأريخي أو ديني. "فالتاريخ لا يبدأ إلا حين يصل الإنسان الأبيض".

مـــرة أخرى: هل يسمح للوثني أن يصبح مسيحياً قبل أن يمر في الديانـــة التوحـــيدية السابقة، اليهودية ؟ من يستطيع أن يجيب عن سؤال كهذا إلا جيمس أخو يسوع، المسيحي ذو الأصل اليهودي؟

ولكـــن انشـــقاقاً حدث في الفئة المنشقة (المسيحية) ذاتها. وهذا الانشـــقاق الآن بين "خليفة" النبي وبين أخيه. هذا الأخ (جيمس) يـــريد الاعتراف بالأبوة اليهودية لديانته، بينما ذاك الخليفة (بولس الرســـول) يريد عقوقاً دينياً. فيعلن الانشقاق التام والخروج النهائي على الأب اليهودي.

لقـــد انتصـــر الخلـــيفة على الأخ الوارث. وهنا ستبرز المأساة الأخرى التي يحلو لليهود تلبسها. إن انتصار تيار بولس الرسول قد هزم بالضرورة تيار جيمس الأخ. وبما أن التاريخ يكتبه المنتصرون فقـــد تم إخفاء شخصية الأخ اليهودي المسكين وتغييبها نهائياً عن التاريخ. وبفضل العلم نستطيع الآن أن نكشف عنه الستار.

ومثـــلما يجب القول الآن، تلبيةً للمطالب الصهيونية، إن المسيح يهودي؛ يجب القول أيضاً إنه كان للمسيح أخ – يهودي بالضرورة – مضـــطهد ومغيب بسبب الطغيان المسيحي وقد آن الأوان لإعادة الاعتـــبار له. (مثلما يعاني اليهود الأوربيون من اضطهاد المسيحيين

الأوربـــيين وقـــد آن الأوان لإعـــادة الاعتبار لهم). وقد آن الأوان لإحقاق الحق اليهودي. فبعد المسيح "صار تاريخ اليهود في معظمه تاريخ معاداة السامية" كما يؤكد الكتاب اليهود، ومن أبرزهم إي إم روزنتال وأرثر جيلب.

تقول صحيفة الإندبندنت في تعليقها على الكتاب: "وإن إخراج جـــيمس من مدارج النسيان، الآن، يلقي الضوء على التغييرات التي أصـــابت العلاقة بين المسيحية واليهودية. وكيف تحولتا من كونهما منطلقـــتين من جذر مشترك إلى مرحلة العداء. ومنذ مرحلة ما بعد "الهولوكوست" يتكشف لنا كم كان سخيفاً ذلك الموقف المسيحي المعادي للسامية".

وبعـــد قـــراءة كتاب بيير أنتوان بيرنهايم "جيمس، أخو يسوع" يخرج القارئ بنتيجة هي أن اليهود، الصهاينة، أبطال اللوبي اليهودي في كـــل مكان الآن، لم يكونوا يطالبون بأمر جديد حين شنوا حملة ضـــغوطاتهم عـــلى الحبر الأعظم وعلى مؤسسة الكنيسة البابوية في الفاتيكان للتوصل إلى إعلان أن يسوع يهودي. فالمطلوب بناء عليه أن يعرف الجميع أن هذه الأرض، قبل مجيء المسيح، كانت يهودية. وكانـــت القوانين والأعراف والتقاليد والقوانين فيها يهودية. وحتى

ورود موضـــوع أن "الوثنيين"، على أساس أن الأرض لم يكن فيها إلا وثنـــيون ويهود، يمكن أن يأتوا إلى الدين الجديد (المسيحي) فإن الإيحـــاء يـــتحول إلى القول إن هؤلاء أقلية تافهة لا قيمة لها، وإن المشكلة الأساس هي بين اليهود (الذين هم السكان والأكثرية) وبين هـــذا الديـــن الجديـــد. وذلك بعد أن كانت المشكلة بين اليهود والســـكان الأصـــليين الوثنيين البدائيين (وهذا هو موضوع الجدل حامي الوطيس الذي يخوضه وايتلام في كتابه "تلفيق تاريخ إسرءيل التوراتية" الذي بدأت الكتابة هنا بالحديث عنه).

ولـــيس الأخ جيمس وحده الذي يجب أن يعاد إليه الاعتبار. بل يهوذا أيضاً.

فالســـؤال الآخـــر الذي استهوى هذا النمط من الباحثين يتعلق بـــيهوذا. والسؤال هو: هل كان يهوذا خائناً للمسيح فعلاً؟ وإذا لم يكن كذلك فلماذا ألصقت به تلك التهمة؟ ومن هو يهوذا أصلاً؟

وكان أهم كتاب قدم عن يهوذا هو كتاب توماس دو كوينسي، في القرن التاسع عشر. وكان دو كوينسي (1785 - 1859) مشهوراً بكـــتابه "اعـــترافات ماضـــغ الأفيون". وكان يتطلع إلى أن يكون "المرشـــد العقلاني للبشر". وقد قضى معظم حياته بعد النضج وهو

يتعاطى الأفيون. وهمه هو التشبث بما يمنحه إياه الأفيون من "أحلام الظهـــيرة ورؤاها". لكنه تميز بنقد أدبي لافت للنظر، وخاصة في ما يتعلق بشكسبير.

وتأثراً بشكسبير رأى دوكوينسي أن المسيح، مثل هملت، "ليس مؤهـــلاً للفعـــل ولمواجهة تقلبات الحياة". وقد وشى به يهوذا إلى الكـــاهن الأعظـــم، الـــذي قام بدوره بتسليمه إلى الرومان، لأنه (يهـــوذا) كان يعتقد أن يسوع يحتاج إلى أن يُدفع إلى الفعل بقوة خارجية. وبالتالي فإن جريمة يهوذا، كما يراها دوكوينسي، كانت في خدمة أغراض المسيح وأهدافه، وأنها لم تكن تستحق تلك اللعنة الأبدية.

ويجيـــب نورمان ميلر المعاصر على التساؤل حول يهوذا بقوله: "إنـــه رجل ذو قضية". وليس شخصية هامشية. ويقول: في مقابلة معه بعد نشره كتابه "الإنجيل بالنسبة للابن": "مشكلة يهوذا مشكلة بنيوية موجودة في النص وليست موجودة في الحقيقة. فالمشكلة هي أن النص التقليدي يحتاج إلى ضحية. ويبحث عنها. فكان يهوذا هو هذه الضحية، مع أنه شخص ورع ورجوم". إنه واحد "من بلاشفة ذلك الزمان".

ويـــرى ميلر أن طريق الجلجلة كان يمكن أن يكون أكثر عبقرية وإيحـــاء "لو أننا فهمنا يهوذا كما يجب أن نفهمه. لقد أضعنا وقتاً طويلاً ونحن نلاحق ذلك المسكين. أجل لقد ضحك علينا الشيطان كثيراً ونحن نطارد يهوذا. وأنا أرى أنه قد آن الأوان لكي نعيد إليه الاعتـــبار. لأنه، كأي يساري آخر، كان يعتقد أن الشفقة مضادة للإيديولوجـــيا. وإنني أعرف يساريين كثيرين كان يمكن أن يكونوا رائعين لو أنهم استخدموا قلوبهم بصورة صحيحة".

لماذا؟

يقـــول: "لا أجـــرؤ على القول إن الفراشات هي التي صنعت التاريخ. ولكن الذئاب أيضاً لم يصنعوه".

ونـــتوقف عند كتاب "يهوذا: خائن يسوع أم صديقه؟"، لوليم كلاسين، والذي هو سيرة حياة يهوذا بتصور جديد ومعاصر.

وقـــبل أن نسترســـل مـــع الكـــتاب نذكّر أن هذا الكاتب (البروفســـور) هـــو إسرائيلي، كندي الأصل مختص في الدراسات التوراتية واللغوية، وكان في أوائل السبعينات من عمره حين ألف هـــذا الكـــتاب. كمـــا كان في معهد التوراة (إيكول بيبليك) في القدس.

والبروفسور كلاسين يعود إلى العزف على مقولة إن تاريخ اليهود بعد المسيح هو تاريخ العداء للسامية، أي لليهود. فهو يذهب، في سيرته التي كتبها عن يهوذا، إلى القول إنه في الوقت الذي بدأت فيه الكنيسة المسيحية الأولى تنفصل عن اليهودية في نهاية القرن الأول قامت، عامدة، باختراع قصة خيانة يهوذا ليسوع، أو أنها ضخّمت تفاصيل تلك القصة. ورفّعته من الدور الهامشي (فهو لم يذكر إلا ثلاث مرات في إنجيل مرقص الذي هو أقدم الأناجيل) لتصويره على أنه اليهودي الخائن ليسوع.

وحين طلب ناشر أمريكي من البروفسور كلاسين أن يكتب سيرة جديدة ليهوذا في عام (1989) كان يحمل الاعتقاد السائد بأن يهوذا مثال لنكران الجميل والخيانة. ويقول كلاسين إنه بعد أن درس الروايات المتعلقة بيهوذا في الأناجيل بدأت وجهة نظره تتغير. وقد اكتشف أن الفعل اليوناني paradidomi المستخدم في الأناجيل لوصف تصرف يهوذا يعني "يسلّم"، وليس "يخون" كما كان يترجم عادة. ويرى أن المترجمين قد صاغوا تفسيراتهم بما يتلاءم مع الفكرة السائدة عن خيانة يهوذا. ثم يقول: "لم أصدق في البدء أن الكلمة قد ترجمت بهذا القدر من السوء. ولم يقدم أحد من منتقدي كتابي تفسيراً أو ترجمة أخرى".

ولعل الدراما المثيرة في هذا الموضوع هي في القول إن الحواريين كلهم قد ركبهم ذنب أنهم قد تخلوا عن يسوع. وأن الندامة القاسية هـــي التي جعلتهم يبحثون عن كبش فداء (يهوذا) يضخمون خطأه لكي يستوعب أخطاءهم أو يغطي عليها.

ولكـــن كلاســـين يصل إلى حد تصوير أن يهوذا كان يظن أنه يهيـــئ لمواجهـــة ومحادثة ودية حميمية بين يسوع والكاهن الأعظم كايافاس. ويؤيد الدليل الإنجيلي، كما يقول كلاسين، فكرة أن يهوذا كـــان في أسوأ الأحوال مخبراً صغيراً ومؤقتاً وليس خائناً أصيلاً دائماً. ويوضح الأمر بقوله: "إن المصادر الأقدم لدينا تفيد أن يهوذا لم يفعل أي شـــيء إلى أن طلـــب منه يسوع أن يفعل. وحتى مشهد الخيانة الأكـــبر في البســـتان (حديقة الجثمانية) أقل وضوحاً مما يبدو عليه. فحـــين حـــدد يسوع من هو العميل المزروع لم يكن يهوذا يعرف أن الكهـــنة ســـوف يسلمونه إلى الرومان لكي يتم قتله. وقد فوجئ وانفعل وانزعج حين تم تسليم يسوع إلى بونيتوس بيلاطيس".

ويوحـــي كلاسين أنه ما زال من المحتمل أن يُرى يهوذا على أنه التابع بالغ الحماس، والمدفوع إلى التفسير الأكثر من حرفي للأوامر، والذي ينطلق بحماس لخدمة القضية.

ويعــود كلاسين إلى الموضوع ذاته، موضوع الأصول اليهودية للمسيحية، فيصر على أن تشويه صورة يهوذا قد بدأ مع بدء افتراق الكنيســة المســيحية الناطقة باليونانية عن أصولها اليهودية في نهاية القــرن الأول. وصــار يهوذا نموذجاً لليهودي الذي خان المسيح، والشخصية المحورية في الميثولوجيا "المعادية للسامية" عبر القرون.

ومــن أطرف التعليقات على ما كتبه كلاسين التعليق الصحفي القــائل إن البروفســور في كثير من الحالات كان يدافع عن يهوذا بكــلام يصــلح للدفاع عن أو جي سمبسون من حيث إيجاد ما لا يحصى من التفسيرات لسلوكه.

ولكــن في مــا يــتعلق بحالة يهوذا هناك أسئلة عديدة يطرحها كلاســين بذكاء، ويرى أنها تبقى دون إجابة. وهذه الأسئلة تدخل في باب علم النفس الروحاني:

هــل ذهب يسوع إلى القدس باحثاً عن موته ؟ وإذا صح ذلك فــإلى أي مــدى تعاون مع يهوذا، أو تعاون معه يهوذا، من أجل تحقيق ذلك ؟ وماذا كانت دوافع يهوذا ؟

ولقــد كــان السؤال الأخير مغرياً للكتّاب دائماً. الجديد الذي يضــيفه كلاسين هو أن شخصية يهوذا اختراع تاريخي. وعند سرد

حكايـــة أيام المسيح الأخيرة ظهر الميل لتضخيم دور يهوذا لأسباب الإثارة الدرامية. ولكن الدافع الأهم لهذا التشويه ليهوذا هو الحاجة السياســية والدينية لدى الكنيسة الفتية، بعد سقوط القدس في العام سبعين ميلادي، وتحولها إلى معاداة اليهود.

ويســتنتج كلاســين: "لقــد بدأت الكنيسة حديثة العهد ترى الحاجة لرسم حدود فاصلة تميز بها نفسها (عن اليهودية). ووجدت في يهــوذا شخصــية ملائمة؛ لأنه كان يهودياً وحوارياً في وقت واحد".

كانــت الكنيسة الأولى منشغلة بالعلاقة بين يسوع والله، وليس بدوافــع الــرجل الذي قاد الجنود إلى حديقة الجثمانية. وفي إنجيل يوحــنا وحده، والمكتوب في وقت متأخر، يصبح لشخصية يهوذا ملامح خاصة. ويظهر فيه وهو يتآمر سراً لخيانة المسيح.

ولــيس هناك دليل خارج الأناجيل على وجود يهوذا، كما يقول كلاســين. وقد أعيى الباحثين أن يعرفوا شيئاً عن خلفيته من خلال بقــية اسمه "الإسخريوطي". فقد يدل الاسم على أن يهوذا ينتمي إلى عائلــة سيخاري المناوئة للرومان. كما قد يعني أن يهوذا قد جاء من قــرية خــريوط، وأنه كان دابغ جلود أو قاطف ثمار. وربما أضيفت

كـــلمة "الإســـخريوطي" إلى اسمه بعد حادثة الصلب. وبالتالي فإن الاسم يكون مشتقاً من الفعل العبري ساخار بمعنى "سلّم".

ويورد كلاسين في ختام كتابه قولاً على لسان يهوذا هو: "لقد وقع الاختيار علي. وقد أوعز لي يسوع أن أقوم بما فعلت".

***

ولـــيس الأمـــر، كما قد يبدو للوهلة الأولى، اجتهادات كتّاب متطرفين قابلة للأخذ والرد، أو الرفض والقبول. بل هو جذور ممتدة في الموسوعات والأكاديميات والأبحاث الأكاديمية والجامعات، كما بيّن وايتلام وفنّد بكفاءة وشجاعة مدهشتين.

لقـــد كانت هناك محاولة لتثبيت فكرة أن المسيحية خارجة من رحم اليهودية. فهي ابنتها الشرعية. وتصبح العلاقة أمومية.

ولكـــن هـــذا يتضـــمن، بشكل غير مباشر، ثم بشكل واضح وصريح، الرغبة في إلغاء المسيحية ذاتها، وتقرير الموقف منها.

فبعد أن توصلوا إلى جعل المثقف المسيحي، المتدين أو العلماني، يحـــس بضـــرورة العـــودة إلى التوراة لمعرفة جذوره الدينية، بدأت الهجمة اليهودية المضادة في إسرائيل: ليس من المسموح لليهودي أن يقرأ الإنجيل.

في الســـابق كان هناك طرح للتواؤم المسيحي اليهودي، والآن يتضح القرار: ليس هناك مسيحي أو مسلم أو بوذي. هناك يهودي فقط. والبقية جنتيل (أغيار).

ودون بـــذل الجهد للاستنتاج هناك مواقف إسرائيلية واضحة في هـــذا المجـــال. فمنذ فترة ليست بالبعيدة صدر قرار عن الكنيست الإسرائيلي لمنع قراءة أو حيازة جميع النصوص المسيحية بما في ذلك الإنجـــيل. "وكـــل مـــن توجد في حيازته نصوص مسيحية مهدد بالســـجن عاماً كاملاً. ومن يطبع أو يوزع أو يستورد مطبوعات تشجع على اعتناق المسيحية يعاقب بالحبس".

فشـــوميل غولديـــنغ مدير "معهد الجدل التوراتي" ومؤسسه في القـــدس يـــتفاخر بمـــا حققه في الكنيست بعد ستة عشر عاماً من "الكفاح ضد المسيحية". ويقول إنه " لا يثق بأحد ولا يقبل تفسير إمكانـــية الـــتعايش مـــع المســـيحيين"، أو من يسميهم "الصهاينة المدسوسين، والموسويين".

***

وبعـــد هذه الحملة تأتي حملة أخرى على البابا نفسه، والمؤسسة البابوية ذاتها، لتحميلها قسطاً من مسؤولية الهولوكوست.

ومـــن الأمثلة على هذه الحملة كتاب " البابا ضد اليهود، دور الفاتيكان في بروز اللاسامية الجديدة " لدافيد آي كيرتزر، وكتاب " البابا والناس ومصير الكاثوليكية " لجون كورنويل.

وقـــد سبق للكاتبين أن كتبا عن البابوية التي جعلاها هدفهما. والكـــتاب الســـابق لجون كورنويل "بابا لهتلر Hitler's Pope" لفت انتـــباهاً كـــبيراً عندما اتهم بيوس الثاني عشر باللاسامية، وبتسهيله وقـــوع المجـــزرة بتوقيعه على اتفاقية مع ألمانيا النازية. ويروي دافيد كيرتـــزر في كـــتابه المتشـــكك "اختطاف إدغاردو مورتارا" قصة اخـــتطاف طفل يهودي في السادسة من عمره وفصله عن أبويه في الدولة البابوية في القرن التاسع عشر. فقد طلب القانون الكنسي أن يتم تعميد الولد على يد خادم لكي يربى بوصفه كاثوليكياً.

وكتاب كيرتيز هو الأكثر إثارة. وهو كتاب جدلي أكثر مما هو تاريخ. فالكتاب تفنيد لبيان الفاتيكان (1998) "نحن نتذكر: تأملات حـــول شواه Shoah". وهذه الوثيقة عبارة عن محاولة لتحديد دور الكنيسة ومشاركتها في جريمة التصفية النازية ليهود أوربا. ففي هذه الوثيقة يعترف الفاتيكان بالدور الذي لعبه بعض الكاثوليك الأفراد، عـــاديون ورجـــال دين، في الهولوكوست. ثم توصل إلى اضطهاد

السيهود، منذ قرون، الذي مارسته الكنيسة وتاريخ "معاداة اليهود" في تعاليم الكنيسة. ولكنه يميز بوضوح بين معاداة اليهود على أساس ديني، وبين معاداة السامية النازية لهم على أساس عرقي وعنصري. وقد قال الفاتيكان "إن [شواه] فعلُ نظام وثني حديث كلياً. ومعاداته للسامية لها جذورها خارج المسيحية - وليس في المسيحية ذاتها. ولتحقيق أغراضها لم تتردد في معارضة الكنيسة واضطهاد أفرادها أيضاً".

ومثل كيرتز وجد كثيرون من الكاثوليك بيان "نحن نتذكر" ناقصاً، إن لم يكن "منافقاً". فهناك تمييز يجب أن يقام بين اللاسامية النازية والمسيحية. ولكن فكرة أن اللاسامية الحديثة لها "جذورها خارج المسيحية" كما يقول كيرتيز "لا تصمد أمام التدقيق والتمحيص". فاللاسامية هي في صلب المسيحية. مع أن الرأي السلبي في اليهود يمتد إلى اليونان والرومان، قبل المسيح بكثير، كما أوردنا في مكان سابق.

ويجعل كيرتيز قصته تبدأ بالثورة الفرنسية ودعوتها للديموقراطية وحرية الدين والتعبير. وبسبب ذلك لم يكن للثورة أصدقاء كثيرون في الفاتيكان. وقد اتخذت المقاومة البابوية لروح الثورة الفرنسية

أشــكالاً عديــدة، بمــا في ذلك طرد اليهود - الذين كان تحررهم وبــروزهم المحدود نتيجة للثورات اللبرالية - بوصفهم تجسيداً لكل شرور العصور الحديثة. ويبين كيرتيز كيف أن الفاتيكان، من خلال نشــاطه الدبلوماســي وتحالفاتــه السياســية وكتابات الصحافة الكاثوليكــية بشكل خاص، قد قام بأكبر حملة تشهير عنصرية ضد الــيهود. ومــنها الاتهام بالجرائم الطقوسية وعدم الولاء السياسي والفســاد الأخلاقــي والخــوف الدائم من قوة اليهود الاقتصادية والتخويف من وجود مؤامرة يهودية ماسونية ضد الكنيسة.

***

وهنا نصل إلى خاتمة المطاف الذي يلتقطه الكتاب الخطير "تلفيق تاريخ إسرءيل التوراتية" لوايتلام.

فأنت لا تكاد تفتح مرجعاً موسوعياً أو أكاديمياً حول مسألة في الــتاريخ القــديم، إلا وتجد أن المرجعية الأساس فيه هي التوراة أو اليهود أو الثقافة العبرية.

وقد لفت نظري (عند قيامي بإعادة ترجمة الإلياذة) في الهوامش التي وضعها ستيفن شانكمان لترجمة ألكسندر بوب للإلياذة، مثلاً،

أنـــه يشـــرح في هوامـــش الفصل الرابع مسألة استخدام الأسلحة وأنواعهـــا في الإلياذة. وكلما ذكر سلاحاً من هذه الأسلحة، حتى ضـــرب الحجر في القتال، لا يجد ما يقارن به إلا عند اليهود. وكأن اليهود هم الذين اخترعوا للإنسان إمكانية أن يقاتل بالحجر أو حتى بالأيدي.

وفي الموســـوعات تطلب معلومات عن الإلياذة فيبدأ الكلام على النحو التالي: " بمعزل عما قدمه العبرانيون من حكايات ليس هناك في التراث الإنساني القديم عمل أكثر أهمية من الإلياذة ".

وحـــتى في موسوعة إيروتيكا لا توجد للعادات الجنسية القديمة مرجعية إلا في التوراة.

حتى القبلة يأتي الحديث عنها في الموسوعة البريطانية (بريتانيكا) عـــلى الشكل التالي: للقبلة كشكل للتحية والسلام تاريخ طويل في الحضـــارة الغربـــية، مع مرجعيات تعود إلى العهد القديم والإغريق والرومان والشعوب الجرمانية".

وكما نرى فقد تم حشر العهد القديم (التوراة) على أنه مرجعية غربـــية، مـــثل الإغريق والرومان، مع تجاهل أصوله الفلسطينية أو المشرقية.

وعـــند البحـــث عن الأبجدية تستغرب كيف يزج باليهود عند الحديث عن موضوع مثل أبجدية أوغاريت (رأس شمرا)، أول أبجدية في التاريخ. إذ يتم اللجوء إلى استخدام نوع من التعابير الغائمة التي يمكـــن أن تذكّر باليهود دون ذكرهم بالضرورة، ولكن بما يمكن أن يوحي بهم.

في موســـوعة "الإنكارتـــا" يـــأتي الكلام عن الأبجدية كما يلي: "الفرضـــية السائدة هي أن أول أبجدية معروفة قد وجدت في فلسطين وســـورية بـــين (1700 – 1500 ق م). وتعـــرف هذه الأبجدية باسم الســـامية الشمالية. وقد اعتمدت الأبجديات العبرية والعربية على هذا الـــنمط. وما تزال العبرية والعربية تحتويان على.. إلخ". وعن الأبجدية اليونانية والرومانية يبدأ الحديث على النحو التالي: "في الفترة الواقعة بين (1000 و 900 ق م) تبنى اليونانيون الفرع الفينيقي من الأبجدية السامية".

وفي موسوعة كومبتون يأتي الكلام عن الموضوع بالطريقة ذاتها: "بين (1500 و1000) ق م ابتكر ساميّو سورية أنظمتهم الخاصة في الكتابة".

إن اســـتخدام كـــلمتي "السامية" و"الساميون"، في موسوعات العصـــر الحديث هذه، يحيل العقل الأوربي، وربما العالمي، إلى اليهود

حــتماً. فتهمة معاداة السامية لا تعني إلا معاداة اليهود. وبهذا فإن "اللغة السامية" تستطيع أن توحي بأنها لغة اليهود وحدهم. كما أن الساميين لا يمكن أن يعنوا في هذه الحالة إلا اليهود.

وفي هذه الموسوعات كلها كلام يغيظك بانحيازه المجحف الذي يدعــي الموسوعية والعلمانية والأكاديمية. فمدينة حماة السورية، التي تعــترف موســوعة كيمبتون أن فيها آثاراً حثية (أي أنها تعود إلى الألــف الثانــية قــبل الميلاد)، لا تجد مرجعية لها إلا كيف عرفت بالعبرية باسم "حاماث". ودمشق التي تعترف الموسوعة أنها تعود إلى أربعــة آلاف سنة قبل الميلاد لا يذكر عنها إلا أن داؤود قد فتحها عــام (333) ق م. وأن أهلها في الأحياء القديمة يعيشون فيها مثلما كــان يعــيش الناس أيام التوراة. وحتى كلمة "إسلام" حين تبحث عــنها في موسوعة مثل "الألفية الجديدة" تطالعك المادة الأولى فيها على الشكل التالي (إسلام: جامع، إسرائيل) ومعها الصورة المرافقة، صــورة المســجد الأقصــى وتحته كتابة: "مصلّون خارج المسجد الأقصى، جبل الهيكل، القدس، إسرائيل".

كــل تاريخ يستمد قيمته أو معناه من علاقته بإسرءيل أو اليهود أو العبرانيين.

وهـــؤلاء الكتاب والباحثون ومعدو الموسوعات ليسوا صهاينة بالضـــرورة. قـــد لا يكونون كذلك. لكنهم اعتمدوا على مصادر معلومـــات سائدة، وكثيراً ما يكون لها صبغة أكاديمية. وهي معدة مـــن وجهـــة النظر اليهودية، كما أوضحنا، أو أنهم تقبلوا المعلومة الوحيدة المتاحة لهم دون نقاش.

ويقـــول وايتلام: "كان اختراع أُلبرايت لإسرءيل ذا أهمية كبيرة بالنســـبة إلى الدراســـات الكتابية في القرن العشرين والتي توالدت وتكاثـــرت عـــلى أيدي مجموعة من الخريجين المؤثّرين الذين تبوأوا مراكز 'أكاديمية' مهمة في كافة أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية".

وقـــد تمـــت العملية، كما يوضحها لنا كتاب وايتلام، بتفريخ المقولـــة من أجل تعميم انتشارها: طلاب لاهوت غير يهود يتلقون عـــلماً دينـــياً متهوّداً. ثم يتحولون هم أنفسهم إلى أساتذة وباحثين وأكاديمـــيين مشبعين بتلك الأفكار التي يلقنونها لطلاب آخرين في جامعـــات أخرى وضمن اختصاصات تبدو غير مرتبطة بالدين أو بالسياسة.

وكمـــا يوضح وايتلام: "في قائمة تقرب من خمسة وستين كاتباً وكـــتاباً، تعـــود تواريخهـــا من القرن الثامن عشر إلى أواخر القرن

العشـــرين، ليس هناك إلا عنوانان يعالجان تاريخ سورية وفلسطين بمعزل عن تاريخ إسرءيل ويهوذا أو الشعب اليهودي \ العبري".

وللتقلـــيل من إمكانية النقاش حول الموضوع جُعل تاريخ المنطقة في الـــبداية فصلاً من البحث الديني وليس البحث التاريخي. وينوه وايـــتلام: "واســـتهلك البحث عن إسرءيل.. مراجع فكرية ومادية اســـتثنائية مـــن جامعاتنا (الأمريكية) ومعاهد اللاهوت والمدارس الدينـــية والمعاهد اللاهوتية وحلقات البحث ودوائر الآثار؛ وبشكل خـــاص في الولايـــات المتحدة وأوروبا وإسرائيل. وإن إلقاء نظرة ســـريعة عـــلى نشرات هذه المؤسسات وفهارسها يكشف لنا عن مـــناهج مـــتعددة حول تاريخ إسرءيل وآثارها، مُدْرَجةٍ في سياق دراسة الكتاب العبري، من وجهات نظر يهودية ومسيحية. وينطبق الأمـــر ذاتـــه عـــلى الجامعات "العلمانية" التي تحتوي على فروع للدراســـات الدينـــية أكثر من المعاهد اللاهوتية. ومما يثير الاهتمام ويحمـــل الـــدلالات الكاشفة أنني استطعت أن أكتشف عدداً قليلاً جـــداً من المناهج حول تاريخ إسرءيل في فروع التاريخ أو التاريخ القـــديم. ويبدو أن التاريخ الإسرءيلي القديم هو حكرٌ على كليات الدين أو اللاهوت؛ وليس أقسام التاريخ".

هـــناك تثبيت للمعلومة يتم في الموسوعات، ثم ينتقل إلى كليات اللاهـــوت الجامعـــية من خلال أساتذة منحازين أو غير مدققين. وبعدهـــا ينتقل الخريجون إلى مجالات أخرى غير لاهوتية بالضرورة حاملين تلك القناعات معهم.

".. وهذا التأثير كبير نظراً لوجود الكثيرين من طلابه - طلاب الباحـــث الـــيهودي ألـــبرايت - يســـيطرون على البحث العلمي الأمـــريكي الكتابي من خلال مواقعهم وترقياتهم إلى مواقع أكاديمية أعـــلى. كمـــا أن منشـــوراتهم وتدريباتهم لأجيال جديدة تالية من الطلاب تعني أن آراء ألبرايت وأبحاثه قد تركت علامتها الراسخة في هـــذا المجال. وقد استطلع بورك لونغ الآلية التي تم من خلالها توالد آراء ألـــبرايت حـــتى من خلال أعماله غير المنشورة. إن خلق هذه الشـــبكة الفاعلة وتدعيمها عامل هام أيضاً لطرح مشكلة أين يمكن أن تـــتواجد دراسة تاريخ فلسطين القديمة في المستقبل وهي تتحرر من سيطرة الدراسات الكتابية".

***

ولذلك يحس القارئ أو الباحث أن التاريخ مهوّد، والمعرفة كلها مهودة. وإذا لم تكن لديك حساسية نحو الموضوع تحس، كما يحس

أي قـــارئ آخر لهذه الموسوعات والأبحاث في العالم (في الصين أو المكسيك أو غانا)، أن تاريخ البشرية، وخاصة في منطقة ما يسمى بــــ "الشرق الأوسط"، تاريخ يهودي، أو أنه لا تاريخ لها إلا عند اليهود. لقد بدأ باليهود، ولليهود وحدهم فضل إيجاده وحفظه.

***

يقـــول لنا وايتلام بوضوح شديد: "صار الماضي منطقة متنازعاً علـــيها"، مثلما أن الأرض والحاضر والهوية المعاصرة مناطق متنازع عليها.

فـــنحن العرب، إذاً، لم نُقتلع من الأرض فقط، بل جرت محاولة اقتلاعـــنا مـــن التاريخ ومن أذهان البشر المعاصرين، وحتى العلماء والمتخصصين منهم.

ولقـــد تردد في مجالات كثيرة أن العقل الغربي العنصري لا يرى الـــتاريخ إلا حيث يتواجد الإنسان الأبيض. ولا يبدأ التاريخ في أية بقعـــة من العالم إلا عند وصوله إليها. فالقارة الأمريكية لا اسم لها قـــبل اكتشافها. ولذلك تأخذ اسم أمريكو فيسبوشي الأبيض الذي اكتشفها. والغربي (الأبيض) لا يأتي إلى أرض، بل هو "يكتشفها".

وإنـــه إذ "يكتشفها" إنما يخلقها على صورته ومقاسه. "فأمريكا قد اختُرعت على صورة المخترع"، كما يقول أُغُرمن. وبهذا يصبح لها وجود. وقبل ذلك كانت في العدم.

***

وقـــد أحســـن اليهود الاستفادة من هذا الحس العرقي المتعالي، فصارت شخصية اليهودي تتماهى مع شخصية الأبيض في التعامل مـــع الشـــعوب الأخرى. ونحن نلحظ الضخ الإعلامي والثقافي في الصحافة والسينما والموسوعات والإنترنت، وحتى في أفلام الكرتون والغـــيمز (ألعاب الكومبيوتر). وكلها تتم تغذيتها من وجهة النظر الـــيهودية العنصـــرية البيضـــاء. وبعد الأبيض الخيّر أمثال طرزان وجـــيمس بوند المنقذ (من شرور الملونين) تأتي أفلام الخيال العلمي وفيها اليهودي منقذ العالم.

وفي أفـــلام الأطفـــال على أنواعها يكون الشرير إما صينياً أو إفريقياً أو.. عربياً. ويُعرف الجميع من أشكالهم الغريبة، بينما يعرف العربي من لباسه واسمه إضافة إلى أفعاله الشريرة.

وهـــذه المســـألة لم تكن واضحة تماماً للكثيرين من العرب غير المتخصصين.

ونحـــن أيضـــاً كـــنا مشغولين بالحديث عن سيطرة الصهيونية المعاصـــرة على جوائز الأدب وعلى الصحافة والسينما والتلفزيون. وبين حين وآخر نفاجأ بفيلم عن التاريخ يقحم اليهود في صنعه أو يلغينا منه.

وهـــنا يشـــير وايـــتلام إلى مســـألة ذات أهمية بالغة. وهي أن الفلســـطينيين والعرب قد حصروا صراعهم الثقافي مع الصهيونية في حلـــبة الصـــراع السياســـي. وبالتالي فإن الجدل حول الأحقية في فلســـطين، والأحقـــية في الوجود أصلاً، لم يكن يعود في مناقشته وطـــروحاته إلى ما قبل القرن التاسع عشر. بينما كانت الصهيونية تلـــتهم التاريخ كله ابتداء من العصر الحجري. ومن لا يؤمن بمسألة الأرض الموعودة (التي يقولون إن الله قد وعدهم بها)، سيجد نفسه أمـــام وجود يهودي تاريخي مزعوم في المنطقة يعطي شرعية أخرى للدعاوى اليهودية والصهيونية.

لقـــد هيمنوا على التاريخ ليسكّنوا الواقع الذي استولوا عليه في حضن ذلك التاريخ ويرضعوه حليبه.

إنهم يؤلبون العالم ضدنا، ويحشدونه معهم. هذا إذا اضطروا إلى الاعـــتراف بأننا موجودون. ونحن كنا دائماً نتجاهل العالم معتقدين

أن إيماننا بحقنا يكفي لإنجازه، وأننا نستطيع الاستغناء عن العالم، أو أننا نستطيع الاكتفاء باتهام هذا العالم بالخضوع للابتزاز الصهيوني، أو بالتآمر ضدنا.

وفي كثير من الحالات يتوقف رد فعلنا عند الامتعاض المستسلم: "إنهم يسيطرون على الإعلام". ولكنهم في الواقع كانوا يصنّعون عقل العالم المعاصر. ولم تكن هذه العملية متوقفة على الإعلام الموجه إلى عامة الناس، بل هي ممتدة في الأكاديميات والدراسات التاريخية وتصنيع الموسوعات العلمية وتغذية الإنترنيت بالمعلومات.

سنكتشف الآن حجم الخسائر الحقيقية التي تعرضنا لها.

نحن لم نخسر الأرض والوطن والبيوت والمزارع فقط، بل خسرنا التاريخ ومنابع المعرفة أيضاً. وهذا يكشف لنا عن الاتساع الحقيقي لميدان الصراع. إن الصراع قائم (وفي غيابنا في كثير من الأحيان) في العالم كله، في الجامعات والدراسات والتعليم والموسوعات وتكوين عقل هذا العالم. وليس في فلسطين وجوارها والمخيمات فقط. واكتشاف كهذا يجب أن يدفعنا إلى التعويض عن غيابنا عن ميادين كثيرة في هذه المعركة المصيرية.

اصدارات الدار

العنوان	المؤلف	المترجم	عام الإصدار
الأعمال المسرحية الكاملة	ممدوح عدوان		2006
هواجس الشعر/ دراسة نقدية	ممدوح عدوان		2006
أعدائي/ رواية	ممدوح عدوان		2006
الجنوبي/ سيرة	عبلة الرويني		2006
تفسير الأحلام/ قصص قصيرة	الفارس الذهبي		2007
جنون آخر/ مقالات	ممدوح عدوان		2007
النقد الذاتي بعد الهزيمة/ دراسة	صادق جلال العظم		2007
تقرير إلى غريكو/ سيرة ذاتية	نيكوس كازنتزاكيس	ممدوح عدوان	2007
زوربا البرازيلي/ رواية	جورج آمادو	ممدوح عدوان	2007
حيونة الانسان	ممدوح عدوان		2007
تهويد المعرفة/ دراسة	ممدوح عدوان		2007
مختارات شعرية	أمجد ناصر		2007




نحن لم نخسر الأرض والوطن والبيوت والمزارع فقط، بل خسرنا التاريخ ومنابع المعرفة أيضاً. وهذا يكشف لنا عن الاتساع الحقيقي لميدان الصراع. إن الصراع قائم وفي غيابنا في كثير من الأحيان في العالم كله، في الجامعات والدراسات والتعليم والموسوعات وتكوين عقل هذا العالم. وليس في فلسطين وجوارها والمخيمات فقط واكتشاف كهذا يجب أن يدفعنا إلى التعويض عن غيابنا عن ميادين كثيرة في هذه المعركة المصيرية.
ممدوح عدوان
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع